إبراهيم أبو عواد

مشكلات الحضارة الأمريكية

مقدمة

إن هذا الكتاب محاولة سريعة لإلقاء الضوء على خارطة المشهد السياسي العالمي، وتثبيت الوجود العالمي عبر دراسة الأزمات المصيرية التي تهدد مستقبلَ أمريكا باعتبارها حضارةً مبنية على هوس الاستهلاك ، والغلو في تبديد الطاقة .

فالاقتصاد مبني على أسس غير سليمة تكرِّس الشططَ الطبقي ، وثنائيةَ السادة والعبيد ، وإجهاضَ الروح والجسد ، والتمييز العنصري بين البيض والسود . وهذا الاضمحلال الحضاري الشامل ناتج عن انحرافات جذرية في الفكر الإمبراطوري الذي يبتعد عن التوجه الإنساني المستقيم . وكل هذه العوامل لا بد أن تؤثر سلباً على مسار الحضارة الأمريكية ومصيرها .

ونحن إذ ندرس بنية الفكر الإمبراطوري ، فإننا لا ندغدغ عواطفَ الناس ، أو نعمل على زراعتهم في عوالم الخيال والوهم والهلوسة من أجل تخديرهم لكي يشربوا الأوهامَ ، ويرددوها إلى درجة التصديق . بالطبع نحن لا نفعل هذا .

فالأزمة الأمريكية في بنية اللفظ والمعنى متداولة _ بشكل أو بآخر _ في الأوساط الحكومية الأمريكية ، والجامعات العريقة ، ومراكز الأبحاث. بل إن كثيراً من المفكرن الغربيين _ الذين ليس لهم علاقة بالإسلام والعروبة وعلى رأسهم نعوم تشومسكي_ يتحدثون بصراحة عن غطرسة " العم سام " الخادعة، والسرابِ الجاثم على عقول الأمريكيين الذين يعتقدون أن دولتهم مستمرة حتى نهاية التاريخ ، وانتهاءِ الإمبراطورية الأمريكية ، والمؤشراتِ حول انكسار الحلم المستبد المؤدلَج عسكرياً ، وغرورِ القوة ، والتموضعِ في بؤرة القوة الظاهرية . وهذا كلام الكثيرين من علماء الغرب الذين يعرفون بنية الحضارة الغربية من الألف إلى الياء ، وليس كلامَ ابن لادن أو أعداء أمريكا .

ويأتي هذا الكتاب كتدقيق فلسفي تأصيلي ينحو منحىً سياسياً استشرافياً

لمستقبل الوضع الأمريكي داخلياً وخارجياً ، بعيداً عن الإيقاعات الصاخبة المفرغة من المعنى الفكري العميق .

فلا بد لكل دراسة جادة أن تشتمل على تطبيقات أنسنة المشاعر ، وتأصيلِ التيارات الإنسانية في قدرة المعنى على التكريس والانطلاق . فالصورةُ الدموية لوأد الإنسانية المنتشرة في كل أنحاء العالم تنبع من غبش الصورة الذهنية حول الأنا والآخر .

وبما أن الحضارة الأمريكية تنظر إلى نفسها على أنها المركز الفكري العالمي ، ومن حولها أطراف هامشيون ، فإن ردود فعل كثيرة نشأت باتجاهات مضادة للمشاريع الغربية مثل العولمة (الأمركة) ، لأن كل ثقافة صارت ترمي إلى حماية نفسها .

وللأسف فإن الغرب لا يرى وجوداً حقيقياً خارج أنطقة وجوده . وهذا أدى إلى تهميش الحضارة العربية الإسلامية، والصينية ، والإفريقية ، واللاتينية في أمريكا الجنوبية . فظهرت عمليات تقسيم منهجية للبشر كدرجة أولى وثانية وثالثة . وهذا غير منطقي في مجتمع الخير المنشود .

والإشكاليةُ الكبرى في هذا السياق أن أدبيات الأنظمة السياسية الإمبراطورية صاحبة المكانة الدولية على مدار التاريخ ، تنتهج سياسة تثبيت الذوات كسادة . حيث يتم إقصاء الآخرين ، وتجريدهم من قيم الحضارة والمعاني الإنسانية الراقية، وهذا يتنافى مع مجتمع الأخوة البشرية.

فالانكسار الحضاري العالمي المتقوقع على شكل فقاعة صابون أو بالون منتفخ ، سوف يزداد تشظياً إذا لم يتم حل المشكلات جذرياً ضمن عالم متعدد الأقطاب والثقافات . فكل حضارة على مدار التاريخ تظن نفسَها سيدة الأرض المطْلقة ، ما هي إلا تشكيل خيالي وهمي يشتمل على بذور انهياره في أنويته الداخلية .

وواجب البشرية جمعاء أن تعمل بكل نشاط لتفعيل العقل الجمعي الكَوْني لإعمار الأرض ، وإسقاطِ العناصر الشاذة عن المسار الحضاري. وذلك عبر الانتقال من طور الدفاع الاختزالي التراجعي أمام العناصر السلبية إلى طور الهجوم الفاعل ضد الأساطير التي تتقمص شكلَ الحضارات . إذ إن انتهاج الأسلوب الضاغط في التعامل مع محورية التوازي السياسي الوهمي هو الذي يُنَمِّي بذور الانهيار في داخل أنوية العناصر الوهمية ، وبالتالي فإن السقوط الحتمي لمجتمعات الكراهية سوف يتكرس بكل دينامية ، وعلى الصعيدين الداخلي والخارجي .

والسقوط المعرفي الذي تعاني منه حضارات انكسار الحلم ، واضمحلال المعنى لصالح عقيدة الأخذ المتكرر ، هو السقوط الشامل للاستهلاك الجنوني لمتع الجسد على حساب متع الروح . وهذه نقطة مهمة سوف نقوم باستعراضها من خلال التأسيس الذهني السياسي لحالة الحراك الاجتماعي داخل بنية المجتمع الأمريكي. فهذا المجتمع الأمي من ناحية الثقافة السياسية لا يهتم بالسياسة الخارجية ، وإنما كل تفكيره منصب حول نظامه الاستهلاكي الصارم ، ومدى قدرته على تطويع الأداء الكلي لخدمة الفردية الأنانية السائرة باتجاه مضاد للروح الإنسانية والبيئة بكل تجلياتها المعنوية والمادية .

وإن أية دراسة تتناول المستوى المعرفي للتشريح الدلالي في بنية التراكيب الاجتماعية للأداء السياسي الأمريكي ينبغي أن تعتمد منهجيةَ الوصول إلى بنية فكرية حاسمة ودقيقة من أجل إعادة قطار كوكب الأرض إلى السكة الصحيحة .

ووفق هذه القاعدة الثابتة المطردة تظهر أنساق دراستنا هذه كأداء فكري محوري يصب في خانة الفعل الاستباقي الحازم ، وليس ردة الفعل العاطفية الخالية من المستوى العقلاني للتحليل .

وكما أن انحسار صيغة التفكير المنطقي في عالم مجنون وجامح سائر نحو الهاوية ، صار منطقاً رسمياً للكثيرين، فإن قدرة الفرد على مواجهة مشاريع

استئصال إنسانيته صارت تياراً مقاوِماً رامياً إلى بعث الإنسان من قبره العالمي من جديد، وإحياء المعاني الميتة في النفوس بشكل متفجر .

ولا يخفى أن الانتكاسات المتكررة في أداء اجتماعيات السياسة على الصعيد العالمي ساهم_ إلى حد بعيد_ في تجذير أنطقة التخلف الاجتماعي وفق صور إنسانية أكثر أنانية ، وأكثر توغلاً في هوس الأخذ المتواصل . وللأسف فقد تحول الفردُ الذي يُفترَض به أن يعمر الأرض إلى معول هدم في هذه الأرض، وهذا نابع من الاختلاط المريع في مفهوم الإنسان كوحدة وجودية راقية . كما أنه نتاج طبيعي لحالة الاحتقان الفكري المأزقي العمومي التي كرَّسها النظامُ الاستهلاكي المتوحش الذي أحال الفرد من صيغته الطبيعية إلى كومة شهوات متضاربة موغلة في الشهوانية الفجة .

وهذا التحول في المنهجية الإنسانية متزامن مع التحول الجدلي في الفكر السياسي العالمي الذي صار يضع المدفع أمام الكلمة وليس العكس. وكل هذه العوامل قادت إلى الانهيار المرعب في تقاطعات المنحى الإنساني التجريدي ، فصار الإنسان سائراً باتجاه مضاد لإنسانيته ، حتى إنه أضحى مستعداً لسحق ذاته في سبيل نيل مكتسبات وقتية .

وبعد انهيار الاتحاد السوفييتي صار للعالَم قطب واحد وهو أمريكا، وهذه المعلومة الواضحة صارت مفروغاً منها من فرط تكرارها. وعلى الرغم من صحة المعلومة السابقة جزئياً إلا أن مفهوم القطب يحمل عدة طبقات من صياغات المفاهيم.

فأمريكا هي حجر الرَّحى الذي يدور حوله النظام السياسي العالمي ضمن واحدية الاستقطاب المنهجي النَّفعي . ومع هذا فإن التصدعات العميقة في وجه أمريكا ككيان داخلي متواصل مع الظواهر الخارجية تمتاز بالانسحابية اللامنطقية . أي تحول انكسار المعنى من التموضع حول نقطة بؤرية مركزية محدَّدة إلى تيار

انسحابي شامل يغطي كافةَ تضاريس المعرفة الفكرية على صعيد تطبيقات عسكرة السياسة التي تقودها الرصاصة بدلاً من الكلمة .

ومهما يكن من أمر فإن التوغل في بنائية الرمز التكويني لحالة القطب الواحد لا بد أن يصل إلى لحظة زمنية فارقة تمنعه من مواصلة التقدم، أي إن استمرارية الحفر في متوازيات العمق ستتوقف لا محالة، ولن تستمر إلى ما لانهاية ، لأن الطاقة المرافقة للعَرَض (الحالة الظاهرية الناتجة عن النواة الأصلية) سوف تنتهي لا محالة بسبب استنفاد الطاقة في قيمة الجوهر الأصلي(البيئة الأساسية لمنبع النواة البدائية الأولى).

فالشمس _على سبيل المثال _ لن تستمر في بعث الطاقة إلى ما لانهاية ، لأن حجم الانفجارات والطاقة الموجودة على سطحها سيصل إلى نقطة التلاشي بسبب انعدام الإمداد ، وحينها تسقط الشمس كشمس ، وتصبح لا قيمة لها .

وأمريكا هي مركزية البؤر الأيديولوجية السياسية . لكن الإشكالية الصارمة تكمن في انقطاع التواصل بين الجوهر الأصلي الأولي(وحدة النواة المركزية المنبع)، والظواهر العَرَضية للأشكال المرئية . كما أن البنية الاجتماعية عبارة عن تيار مغلق على الروح ، مفتوح على الاستهلاك المادي . وهذا يؤثر سلباً في مسار القوة ومصيرها .

وكلما تكونت الأفكار في سياق المواجهة مع قيم النَّفي السالبية التي تتكرس وكأنها قيم إثبات عالمية الدلالة والتثبيت ، نشأت قيم المقاومة للمشروع الانتكاسي الذي من شأنه إحالة المعنى إلى لفظ مشوَّش ، وزراعة الكائن الحي في طور الشهوانية ، واللهاثِ وراء نزواته الآنية ، وحصرِ تفكيره في دوائر الاستهلاكية المفعمة بسحق ذاتية الفرد والمجتمعِ، لصالح إنشاء تيارات سياسية ناتجة عن زواج الثروة بالسلطة .

وتأتي هذه الصور الفكرية في سياق دراستنا كتشريح رمزي واقعي واضح

يستشرف المستقبلَ، ويضعه في إطار المعنى الرسمي لأزمة الإمبراطورية الأمريكية الجوهرية .

وقد برزت بنية الأزمات الحضارية العالمية على مسرح الأحداث الدولي بشكل صاعق . لأن التآكل في الفكر المعرفي أدى إلى تآكل في المعنى الوجودي للكائنات الحية .

وعلى الرغم من اعتقاد كثير من الباحثين أن الحضارة الأمريكية بدأت العد التنازلي ، فإننا نؤكد أن الأمر ليس بالسهولة التي قد يتخيلها البعض . فالأنظمة التداخلية في الولايات المتحدة شكلياً أنظمة مفتوحة تمتاز بحرية الاختيار . وهذا يعني أنها قادرة على إجراء تصحيح ذاتي لمسارها في كل أزمة . إلا أن التأخر في العلاج سيؤدي إلى عدم فاعلية الدواء . وهذا هو الحاصل على أرض الواقع .

والمشكلةُ الأمريكية في علاج الأزمات تتمحور حول البطء الكارثي في إنتاج الفعل ورد الفعل ، وهذا مرجعه إلى مراعاة نفوذ الطبقات الغنية المسيطرة على مفاصل البلاد دون النظر إلى غالبية الشعب الذين هم مُهمَّشون ، وبعيدون كل البعد عن كواليس صناعة القرار الأمريكي. وهذا أمر متوقع في الأنظمة الرأسمالية المغلقة المحصورة في أيدي طبقة محدودة دون امتدادها إلى باقي طبقات المجتمع . وإذا استمر تكديس السلطة المالية _ وما يتفرع عنها _ في قبضة المتنفِّذين ، وحصر الأداء الاجتماعي بشتى أصوله وفروعه في فئة ضيقة ، فإن هذا الأمر سيؤدي إلى عواقب اجتماعية وخيمة تعمل على تفكيك المجتمع ، وغياب البوصلة القائدة ، وفقدان روح الانتماء والولاء .

إبراهيم أبو عواد

- ١ -

معالم السياسة الأمريكية المتشعبة

إن الأداء السياسي الأمريكي مرتبك للغاية . فمفهوم الأنساق السياسية قد تحول من القيمة الفكرية السامية إلى قيم انكسار المعنى . وهذا المبدأ الانسحابي الخطير إنما يهدف إلى إعادة تشكيل عقلية التَّوْعَوِيَّة الذاتية للأنساق الإنسانية بما يكفل استمرار تأزيم العلاقة بين الإنسان وذاته، والإنسانِ وبيئته، والإنسانِ والآخر.

وكما أن عقلانية الانتكاسات الفوضوية هي اللب الفلسفي الأولي لتعريف السياسة العالمية المعاصر ، فإن الخدع البصرية التي تتقمص الأشكالَ الإنسانية هي التجريد التطبيقي على أرض الواقع النابع من الصورة المتخيَّلة للعالَم في ذهن صناع القرار على الصعيد العالمي .

فاللعبة المتكونة من الفعل ورد الفعل ، أو من النتيجة الحتمية للمعنى وأرضيةِ الواقع المصنوع الحاضن لحزمة النتائج بصورة غير تلقائية ، إنما هي لعبة ترمي إلى إعادة صناعة الكائنات الحية وفق منظور التدجين .

ووفق اندلا ع الغبش الفكري في نخاع الأنظمة المعرفية تبزغ طبيعة المتوازِيات المفكَّكة التي تشكِّل الصورةَ النمطية للإمبراطورية الخارجة على قانون الإنسان ، والمضادة لإشارة المعاني الحاسمة . فالوهم في تداخلات الغبش الأيديولوجي يغدو تياراً نسقياً تحطيمياً لهالة المعنى الوجودي في الذات الكيانية الإنسانية .

والمؤسف أن مسار الإنسان المضاد لكينونة إنسانيته صار هو المسار الفاعل لعلاقات الترابط بين بؤر المتمركِزات المعرفية الفلسفية ، وتطبيقاتِها على أرض الواقع المخيالي في أُطر الاستغلال ، والتبعيةِ ، واضطهادِ الحلم الإنساني ، وطردِ المعنى من الطبيعة الفكرية إلى التشكيل العسكري المتَّجه نحو ديمقراطية الدبابة ، وحريةِ صوت الرصاص .

ولا يخفى أن المضمون المأزوم لتقاطعات الانكسار المجتمعي الذي تكرَّس على شكل كتل سياسية متنافرة هو في الحقيقة بؤرة التفكك الاستقطابي المبعثر في اختلال أنطقة وجوديات الحلم المتبخر ، ومجالاتِ انكسار طاقة الضوء الوهمي الذي يمد الأنويةَ الجانبية بشرعية الديمومة المستمدة من سحق الفرد للحصول على الطاقة المحرِّكة للمادة المتفشية في روحانية المعاني .

ومن خلال التجريد المعنوي للتداعي في تشوهات صورة النظام الرأسمالي الأمريكي[1] ، تتجذر هالة الانقسام الشرسة في إفرازات التدرج في أزمة المنطق.

---

(١) تتألف أمريكا من ولايات متضادة في مبادئ المعنى الفكري لحقوق الإنسان . وهذا يعكس إشكالية التلاقي القسري ضمن أطر جغرافية مُحالة إلى تيارات سياسية . فالمبدأ الظواهري يوهم بوجود وحدة مجتمعية ما ، إلا أن التأصيل الدينامي لحالة الحراك الاجتماعي في المجتمعات الأمريكية التي تُصوَّر على أنها وحدة مجتمعية واحدة يعكس بدقة صورة القشة الرابطة بين تقاطعات الولايات المختلفة ، وطبيعةَ الصمغ الضعيف المتآكل الذي يربط بين غضاريف الوحدات المتباعدة في تداخلات قيم الخريطة المعنوية للإمبراطورية الأمريكية التي تعاني من تبعثر مستويات الطاقة ، والضغطِ بين المركز والأطراف . أي تشتت طاقة الانبعاث الحضاري الخارج من النواة المركزية باتجاه أنوية جانبية ضحلة. كما أن الشطط الطبقي بين الولايات الغنية التي تعتمد على التكنولوجيا والصناعات المتطورة ، والولاياتِ الفقيرة العائشة على زراعة القطن وبعض المحاصيل ، يعيد إلى الأذهان شبحَ الحرب الأهلية الدامية بين الشمال والجنوب ، وهذه الحرب قد تتخذ أشكالاً متعددة ، بما فيها الشكل العسكري القتالي . فالنارُ الكامنة تحت الرماد في مجتمع يفتقد إلى الترابط الفكري الواضح ، تلغي مفهومَ الأمة المتماسكة، وتُبرِز وحداتٍ مجتمعية مخادِعة . كما أن نواة طبائع النمذجة الرأسمالية تتمحور حول تحويل الفرد إلى كيان استهلاكي مادي عبر تفريغ العقلانية من المحتوى العاطفي للوجود الآدمي ، ثم إحالتها إلى كينونة سِلَعِيَّة محضة تمتص قدرةَ الفرد على التواصل مع ذاته= =والآخر ، لتجعل منه

فالاعتماد على عسكرة السياسة عبر تأصيل منطق القوة ، يُعرِّي المعنى من حركات الحوار البشري المتناغم ، ويؤدي _ في نفس الوقت _ إلى تعميق التفتيت المتواصل في البيئة الأمريكية المتأثرة بضعف البنية الأخلاقية الداخلية .

فأمريكا هي بيئة ناتجة عن استئصال السكان الأصليين (الهنود الحمر)، والعمل بشكل منهجي على مصادرة ثقافتهم، وتقديم صورتهم في كل وسائل الإعلام كهمج وبدائيين وبشر من الدرجة الثانية ، حتى يتم إعادة صناعة التاريخ فوق ميثولوجيا الرَّجل الأبيض المنتصر .

وهذا المنهج التكريسي يستند إلى آلة إعلامية جبارة قادرة على الوصول إلى أبعد نقطة وفق أحدث الأساليب الدعائية المدعومة برؤية التخطيط الإستراتيجي بعيد المدى . والمشكلةُ الأساسية هي غياب الصوت الآخر الذي يُعارِض ويَدْحَض ويكشف عن نفسه ، لذلك يتكرس الصوتُ الأوحد كصوت الحق والحقيقة دون معارضة .

ومن العوامل الهامة التي ساهمت في تجذير هذا المنطق اللامنطقي ، ضعفُ البنية الثقافية في البيئة الأمريكية الشعبية ، مما ينعكس سلباً على مجتمع الحصيلة السياسية، والحصيلةِ المعرفية العامة القادرة على غربلة الأفكار، وانتهاجِ متوالية النقد والنقض.

فعلى الرغم من أن الشعب الأمريكي تكاد تكون نسبة الأمية (عدم القدرة على القراءة أو الكتابة) فيه معدومة ، إلا أنه يعاني من الأمية الثقافية المعرفية . فهو ضعيف إلى حد الغثيان في السياسة الخارجية . وكل تفكيره محصور في محيطاته ذات التماس المباشر بحياته الشخصانية ، مثل الضرائب المفروضة عليه ، والراتبِ

مجتمعاً شخصانياً مكبوتاً طارداً للعاطفة ، متقوقعاً حول العمود الفقري للاستهلاك المتوحش المناوئ للإنتاج النافع .

الشهري ، والمسكن والسيارة ، والعلاقاتِ العاطفية . وهذا نتاج متوقع للقيمة الاستهلاكية الصادمة في مجتمع يملك معدلاً عالياً في استهلاك الطاقة . وهذا الاستهلاك له عواقب وخيمة في الحاضر والمستقبل ، لأنه يفتقد إلى الحس العقلاني ، والتنظيم الاجتماعي ، ولا ينتبه إلى أهمية التوازن بين الرخاء والشدة .

والمجتمع الأمريكي يملك نسبة كارثية من السُّمنة [2] . وهذا يدل بلا شك على شراسة النظام الاستهلاكي الذي يستنزف الموارد والطاقة والبيئة بلا رحمة .

---

(٢) إن انتشار مرض السُّمنة في المجتمع الأمريكي بشكل كبير أدى إلى خلخلة المستويات المجتمعية . فتشير إحدى الدراسات الغربية أن هناك غيرةً قاتلة لدى الأمريكيات من الفرنسيات لأنهن رشيقات ، ويمتلكن قواماً جذاباً متناسقاً في مراحل حياتهن المختلفة بعكس الأمريكيات اللواتي يعانين من انتهاجِ سياسات غذائية خاطئة أدَّت إلى الترهل والسمنة وفقدان القوام المتناسق والمنظر الجذاب . وهذا الأمر قد يبدو غير ذي أهمية عند معشر الرجال ، ولكنه عند النساء يعتبر ضياعاً للمستقبل والحلم والجاذبية . لذلك فإن عدد الأمريكيات المترددات على عيادات الطب النفسي والمتعاطيات لمضادات الاكتئاب أو المخدرات يعطينا مؤشراً خطيراً للغاية على حجم المأزق والتعاسة في حياة المرأة الأمريكية التي تفقد ثقتها بنفسها ، واستمتاعها بالحياة ، نتيجة فقدانها للقدرة على الإغراء والجذب والتمركز في بيئة الجاذبية ، وبؤرةِ أنظار المعجبين . وهذا يقودنا إلى إعطاء لمحة موجزة حول وضع المرأة الأمريكية ، فقد نشرت مجلة التايم الأمريكية الشهيرة بتاريخ٥/٩/ ١٩٨٣م تقريراً مؤلماً يعكس الانهيار الأنثوي في مجتمع متطرف في ذكوريته أفاد : ((أن عدد النساء اللواتي يضربهن أزواجهن في أمريكا بين مليونين إلى ستة ملايين امرأة ، وأن ألفين إلى أربعة آلاف يمتن من الضرب المبرح، مما جعل ثلث وقت رجال الأمن ينصرف إلى معالجة العنف البيتي . وقد نشرت وكالة المخابرات الفدرالية F.B.I أن ٤٠% من النساء اللواتي قُتلن إنما قُتلن من قبل الأزواج أو العشاق)) اهـ . والجدير بالذكر أن المذهب البروتستنتي ــ وهو السائد في أمريكا ــ يحرِّم الطلاقَ إلا في حالات

محدودة منها الخيانة الزوجية. لكنه يحرِّم على= =الرَّجل والمرأة أن يتزوجا بعد ذلك . وهذا يجعل نسبَ العلاقات خارج إطار الزواج عالية جداً . كما أن البروتستنت لا يؤمنون بسر الزيجة (وهو أحد أسرار الكنيسة السبعة). وهذا أدى إلى إعراض الكثيرين عن الزواج ، والاكتفاءِ بأبناء خارج المؤسسة الشرعية تحت ضغط جدلية الزواج والطلاق . والمرأة الغربية هي فلسفة التأطير الجنسي الصارم ، والدخولِ في أنطقة السلعة ، فهي مجرد دمية ملوَّنة في أيدي الرِّجال يلعبون بها ثم يلقونها بحثاً عن لعبة أكثر جمالاً . وهذا يتنافى مع حقوق المرأة في الطبيعة الإنسانية . وحتى الحقوق الأساسية لا تُمنَح للمرأة من أجل حياة كريمة . وقد قال الدكتور علي عبد الواحد وافي في كتابه المرأة في الإسلام (ص ٢١و٢٢) : ((ولتوكيد هذا القصور المدني المفروض على المرأة الغربية المتزوجة ، تقرر قوانين الأمم الغربية ويقتضي عرفها أن المرأة بمجرد زواجها تفقد اسمها واسم أسرتها ، فلا تعود تسمى فلانة بنت فلان ، بل تحمل اسم زوجها وأسرته . أو تُتْبِع اسمها الصغير باسم زوجها وأسرته ، بدلاً من أن تتبعه باسم أبيها وأسرته كما هو النظام الإسلامي، وفقدان المرأة المتزوجة لاسمها وحملها اسم زوجها، كل ذلك يرمز إلى فقدان الشخصية المدنية للمرأة الغربية واندماجها في شخصية زوجها . على حين أنه بحسب النظام الإسلامي تحتفظ المرأة بعد زواجها باسمها واسم أبيها وأسرتها ولا تحمل اسمَ زوجها مهما كانت مكانته . فزوجاتُ الرسول ــ عليه السلام ــ أنفسهن كن يسميهم بأسمائهن وأسماء آبائهن وأسراتهن ، فكان يقال: عائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر. وما كن يحملن اسم زوجهن مع أنهن كنَّ زوجات لخير خلق الله. واحتفاظ المرأة في الإسلام باسمها واسم أسرتها دليل على احتفاظها لشخصيتها وعدم ذوبانها في شخصية الزوج . ومن الغريب أن بعض سيداتنا المسلمات في بعض البلاد العربية وغيرها يحاولن أن يتشبهن بالغربيات حتى في هذا النظام الجائر ، ويرتضين لأنفسهن هذه المنزلة الوضيعة . فتسمي الواحدة منهن نفسها باسم زوجها ، أو تُتبع اسمها باسم زوجها وأسرته، بدلاً من تتبعه باسم أبيها وأسرتها كما هو النظام الإسلامي.وهذا هو أقصى ما يمكن أن تصل إليه المحاكاة= =العمياء . وأغرب من

ولأن التكريس البنائي في مجتمع متفكك يتوالى متخذاً شكلانية العلاقات الإنسانية الضعيفة ، كان من المستحيل أن يقوم العقلُ الاستهلاكي بتأسيس منظومة حضارية كَوْنية، لأن العلاقة بين العقل الإبداعي والعقلِ المادي الجدلي علاقة أضداد، تمتاز بثنائية الاضطراب الدلالي (العِلَّة والمعلول) .

فالعقل الإبداعي هو مصدر الفعل الحضاري العالمي (العِلَّة الأساسية في تقاطعات محورية الإشراق) ، أما العقل المادي فهو النتيجة الحتمية لانكسار الذات الإنسانية ، وغرقها في التوحش وانعدام حقوق الإنسان (المعلول الانهياري) .

***

هذا كله أن اللائي يحاكين هذه المحاكات يتألف معظمهن من المطالبات بحقوق النساء ومساواتهن بالرجال، ولا يدرين أنهن بتصرفهن هذا يفرِّطن في أهم ناحية من نواحي المساواة التي يطالبن بها ، وفي أهم حق منحه الإسلام لهن ورفع به شأنهن وسواهن فيه بالرجال)) اهـ .

- ٢ -

تفريعات القوة الروحية والمادية

إن أية قوة في التاريخ البشري تفتقد إلى الغطاء الأخلاقي الشَّرعي ، تؤسس منطقاً سياسياً جديداً وهو اللامنطق . إذ إن دخول السياسة المعبَّأة بالأيديولوجية [3] ضمن إطار سياسي منفعي ، من شأنه دعم وجهة نظر المحافظين الجدد الذين يقودون الغرب إلى بؤرة الصدام مع نفسه . وهذا يتنافى مع قيمة حوار الحضارات، والأخوةِ البشرية بغض النظر عن الدين أو العِرق . فلا يجوز السماح للمتطرفين من أتباع الديانات أن يعيدوا تشكيل الدِّين من وجهة نظرهم ، ومصالحهم الشخصية .

---

(٣) إن التوظيف الأيديولوجي المسيَّس للعقائد الدينية يتنافى مع الأخوة البشرية ، والسلامِ العالمي الشامل. فالبعض يقوم بتوظيف منهجي لنصوص دينية ميثولوجية لتغذية الصراع العالمي ، وتحقيقِ مصالح ذاتية معادية لحوار الحضارات ، وإقصاءِ الآخر ضمن متواليات تكاثرية ، هي بالأساس تيار ميكانيكي أيديولوجي نفعي قائم على الفلسفة المادية للأمر . فتظهر نصوص تؤسس لصدام الحضارات : ((لا تظنوا أني جئتُ لأرسيَ سلاماً على الأرض. ما جئتُ لأرسيَ سلاماً بل سيفاً . فإني جئتُ لأجعل الإنسان على خلافٍ مع أبيه والبنت مع أمها والكنَّة مع حماتها . وهكذا يصير أعداءَ الإنسان أهلُ بيته)) [متَّى١٠: ٣٤و٣٥] . ((جئتُ لألقيَ على الأرض ناراً فكم أُريد أن تكون قد اشتعلت ؟)) [لوقا ١٢: ٤٩]. ويظهر مبدأ تعزيز الانقسام بين بني البشر : ((أتظنون أني جئتُ لأرسيَ السلام على الأرض ؟ أقول لكم : لا ، بل بالأحرى الانقسام)) [لوقا ١٢: ٥١] . ويتكرس تفكيك مؤسسة الأسرة: ((إنْ جاء إليَّ أحد ولم يُبغض أباه وأُمَّه وزوجتَه وأولادَه وإخوتَه وأخواتِه بل نفسَه أيضاً فلا يمكنه أن يكون تلميذاً لي)) [لوقا ١٤: ٢٦] .

فالانكماش الحضاري هو صورة المتوازِيات المتطرفة ، والعدميةُ المجازية الموغلة في هلامية اللاشيء التجريدي . فغيابُ الأخلاق عن المسار البشري العالمي من شأنه نفي قيم الحقيقة عن الكيانات السياسية ، فتصبح الحضارة كقيمة تاريخية لا تملك وجوداً حقيقياً على أرض الواقع ، بسبب تحولها إلى كيان مصطنَع ، وقطارٍ منحرف عن السكة .

ومن هنا تظهر أهمية البناء العالمي وفق مبدأ الأخوة البشرية العالمية ، والتحالفِ الحضاري لإعمار الأرض ، وتأسيسِ منظومة الثقافة الكَوْنية المشتركة المبنية على توحيد الخالق تعالى ، والنظرِ إلى الإنسان باعتباره خليفة الله في الأرض من أجل إعمارها ، ونشرِ الخير في كل أنحائها[4] .

إن نفي الخديعة المرتدية قناع الحضارة هو أساس فكري إنساني مهم من أجل تفتيت المتمركِزات الوجودية لهالة الانبعاث الحضاري الوهمي المكرَّس .

ونحن إذ ندعو إلى خارطة جديدة للأرض متعددة الأقطاب ، فإننا نهدف إلى إعادة أنسنة الإنسان، وانتشاله من قاع التوحش والسادية الذي دخلت فيه الحواسُ

---

(٤) إن الإسلام كرَّم السيد المسيح ﷺ ، وأمَّه السيدة مريم العذراء ــ عليها السلام ــ. فالله تعالى أنقذ المسيحَ من الصلب والأذى الجسدي على أيدي أعدائه ، فرُفِع إلى السماء تكريماً له . وأيضاً لا توجد في القرآن الكريم سورة باسم فاطمة ، أو خديجة ، أو عائشة . بل يوجد سورة كاملة باسم مريم التي طهَّرها الله تعالى من تهمة الزنا التي رماها اليهود بها . قال الله تعالى : ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً ﴾ [النِّساء:١٥٦] . قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٧٦٢) : ((قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يعني أنهم رموها بالزنا ، وكذلك قال السدي وجبير ومحمد بن إسحاق وغير واحد، وهو ظاهر من الآية أنهم رموها وابنها بالعظائم وجعلوها زانية وقد حملت بولدها من ذلك، زاد بعضهم وهي حائض،فعليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة)).

البشرية بفعل حجم الاستهلاك الضاغط على حياة الكائن الحي المدجَّن الذي كرَّسته الأمركة (العولمة) كمرحلة وجودية مستمرة حتى نهاية التاريخ المحاصَر في قبضة القوة العمياء .

وهذا الوهم المتراكِب الذي يفترض استمرارية الفوضى الرأسمالية الديمقراطية التوسعية حتى نهاية التاريخ ، ما هو إلا حِراك انتكاسي لصيغ متوازيات انكسار الوعي العلمي ، وانتحارِ المنهجية المعرفية الشاملة ، وفقدان الإنسان لإنسانيته .

وبالقطع فمثل هذا الوهم قد نتج بفعل غياب القراءة الواعية لأنساق الحِراك التاريخي ، وطبيعةِ التحرك الأفقي والعمودي للحضارات (الولادة ، الشباب ، الشيخوخة ، الموت) .

والإشكالية الحقيقية في عقول المفكرين الداعمين لمشاريع المحافظين الجدد الأيديولوجية الفكرية ذات الخلفية النفطية هي التموضع في ذروة النشوة الإمبراطورية الوقتية ، والتخندقِ في بؤرة اللذة الآنية ، ونسيانِ النار الكامنة تحت الرماد نتيجة عدم إيجاد حلول جذرية للقضايا الإنسانية، وعدمِ التفكير في تموضعات المسؤولية المترتبة على إشكالية اللذة .

فغياب تشريح نسقية " الهدوء الذي يسبق العاصفة " ، والاكتفاء بالتموضع في ذاتية الهدوء المرحلي المؤقَّت قاد الإمبراطورية الأمريكية إلى أزمات وجودية حرجة . وهذا يظهر جلياً في انعدام الاستعداد للأزمات الشرسة بمختلف مستوياتها، فصارت ثنائية الروح _ المادة هي إشكالية الأضداد والتمزق والفراغ الموحش .

فالكيان الأمريكي الإمبراطوري تنعدم فيه المرونة شيئاً فشيئاً من خلال أبعاده السوسيولوجية المتضاربة ، لذا تتوالى الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بشكل صادم ذي تأثير قاتل للروح والمادة ، لكن النسق الاجتماعي قد يحيا _ بعد الأزمات _ في فترة حلاوة الروح، لكن هذه الحياة تكون مضطربة ، وسائرة نحو الطريق المسدود .

ونحن نعلم أن النظام السياسي الأمريكي _ رغم كل السلبيات_ نظام مفتوح قادر على إعادة تصحيح مساره _ نظرياً على الورق_ ، لكن الواقع ضاغط في مركزية الصميم ، لذلك فإن القطار انحرف عن السكة ، مما أدى إلى ضعف قبضة أمريكا بدليل وجود دول متمردة على الإرادة الأمريكية مثل إيران وكوريا الشمالية وكوبا . وهذا تهديد مباشر للفكر الأمريكي الرامي إلى بسط نفوذه على العالم .

ومن خلال التنظير الفلسفي للسياق التاريخي ، نجد أن غياب الأنسنة المؤْمنة حصر مشاريعَ الاحتلال الأمريكي في خانة ردة الفعل لا الفعل . وبما أن تأسيس متواليات المعرفة الجزئية في بنائية التجريد الانسحابي يتماهى مع الفوضى الخلاقة التي صنعتها الآلةُ العسكرية الأمريكية، فإن نتائج السياسة التوسعية تتماهى مع تكثيف ميثولوجيا التسييس .

وبالتالي فإن التجسيد الدلالي لمدى تطابق معارف السياسة الإمبراطورية مع أنسنة المعاني المجتمعية قد أُصيب بانتكاسة شرسة تتمثل في تعرية أمريكا أمام نفسها والآخرين . وهكذا فقدت الغطاءَ الذي كانت تتخذه لشَرْعنة أفعالها غير القانونية .

فمع تزايد الأزمات العاصفة بالكيان الأمريكي، تكرس مأزق الوجود التأسيسي المقنَّع . فالعم سام تشظى إلى أعمام، فلم يعد النظام الحياتي الأمريكي سوى مركزية استهلاكية ، لأنه قائم على استنزاف الموارد ، ومصادرِ الطاقة ، وتأطيرِ الآلة الإعلامية القوية في دغدغة مشاعر الناس .

فالإعلام _ كأيديولوجية_ يعمل على إحالة المعنى التأصيلي إلى مستويات معيشة هلامية في عوالم الأحلام والخيال والحب والثراء والمجد . وهذا التأطير الوهمي نتاج طبيعي لتكثيف جدلية التطابقات المعرفية في خانة التوازي الاستقطابي بشكل غير منطقي .

ومن خلال مفاهيم انكسار الحاجات المرحلية لوجودية التمركز العاطفي حول

المعنى ، صارت الأنساق المجتمعية في الأطر الجغرافية السياسية تنتج كائناً مسخاً، وهو المجتمع المتشكل على صورة إقطاعيات، ولا يستند إلى النماء والانتماء .

لكن المسألة لم تقف عند حدود تجذير الإقطاعيات في المجتمع المسيَّس على متواليات الفراغ العدمي وفق أشكال المستوى المادي الرأسمالي فحسب ، بل تكرَّست الإقطاعيات في عوالم الأنسنة المعرفية . فصار هناك بشر درجة ثانية وثالثة وعاشرة ضمن إطار كياناتٍ جسدية منبوذة لا تاريخ لها . فلم يعد الأمر مسألة من يملك ومن لا يملك . بل وصل الأمر إلى مقاومة أنسنة الإنسان بصورة تعكس اضمحلال التفكير الإنساني الراشد . وهذا زرع في قلب المجتمع تاريخاً من الانكسار والتمييز العنصري الدلالي .

***

-٣ -

أدلجة عسكرة السياسة

تبقى الإرهاصات في الفكر السياسي الأمريكي تياراً تكوينياً لسياسات شخصية نفعية متضاربة . إذ إن تكرار المتواليات البؤرية في محيطات هندسة الأسطورة يحيل الفردَ المؤدلَج في سراديب الأمركة الداخلية أو الخارجية إلى جسم ذي قطبَيْن (قامع ــ مقموع) .

فالعائش في الجحور سوف يصعقه الضوء ويدمر حياته ، لذا فهو يتأقلم تدريجياً مع الظلام حتى يصير الوهمُ المعتم جزءاً إنسانياً أصيلاً في الذات الكيانية الشخصانية للأفراد . ومن ثم تنعكس هذه الصيغة الشخصية لتصل إلى مستويات مجتمعية عمومية ، الأمر الذي يقلب الموازين ، فيتحول الفردُ إلى رافض لذاته ، وعدوٍّ لخلاصه .

وفي ظل هذا الغبش المتداعي في مجالات توارث أنسنة الخديعة فإن المخيال المتصوَّر يغدو واقعاً هامشياً لسياسة إمبراطورية تشبه الإمبراطورية الرومانية القديمة من حيث تقسيم الناس إلى سادة وعبيد . وللأسف فإن جاهلية القرن الحادي والعشرين بكل ما تحمله من انتكاساتٍ على جميع الأصعدة تتمحور حول فلسفة السادة والعبيد في التعاملات بين أجزاء النظام السياسي العالمي ، مما يُشكِّل عائقاً حقيقياً أمام نهوض الإنسان وحريته .

ومن خلال كسر متوازِيات أدلجة التحولات الإدارية في هندسة الخراب الشامل نستطيع إيقاف آلة القتل في المجال الروحي . فوأد الروح هو الدرب الأقصر نحو التحطيم الشامل للمنجزات الإنسانية في مجالات الحياة الفاضلة، لكن قيمة الحياة الفاضلة كتيار فكري نظامي يتعارض مع الفوضى الخلاقة التي تنتهجها كثير من الأنظمة السياسية الكَوْنية من أجل تفكيك العالَم ، وتقسيمه على

أسس الصراعات الدينية والعِرقية ، وإعادة تركيبه بما يضمن بسط سيادة الأوهام على كل تقاطعات الحياة المفصلية للأنا والآخر والذات الشخصانية والذات المقابِلة والمجتمعات في شتى صور حياتها .

إن تقوقع السُّلطوية المركزية في أية حضارة تقوم على استنزاف الضحايا حتى الرمق الأخير، سيحصر الدلالاتِ في زوايا الظلام الدامس، فصارت الشمس جزءاً لا يتجزأ من منظومة العتمة . وهذا الانعكاس ذو المنحى التأسيسي في متواليات هندسة الانكسار أخذ بعداً إنسانياً في صميم المشروع التكويني للفرد فصار الفردُ قامعاً آلياً لذاته بفعل الضغط الهستيري الخارجي المكثَّف من كل الجهات ، الأمر الذي أَنتج ضغطاً تلقائياً نابعاً من إفرازات التداعي الانسحابي في الذات الإنسانية ، فأضحت العلاقة بين الإنسان والمجتمع العالمي علاقة نفعية مادية مع تبادل فظيع للأدوار بصورة ميكانيكية دامية .

والانهيار التكريسي في صيغه العنيفة هذه إنما هو حصيلة توحش المجتمعات المادية ضد ذاتها الفلسفية والواقعية . وما التمزق الاجتماعي والتفكك الأسري في محيطات العناصر المنسية الدالة على تفتيت القيم الإنسانية إلا حالة شَعْبَوِيَّة في نطاق التداعي اللامنطقي لانتكاسة الروح في أكثر صور التحطيم الفردي على مستوى الجماعة شراسةً .

لكن المجتمع المادي الاستهلاكي بوصفه تجمعاً هجيناً من كيانات إنسانية شتى لا رابط بينها سوى المنفعة المتبادلة سائر إلى الاضمحلال ، لأن البناءات في ذاتية انكسار الحلم هي التشكيل المضاد للعقلانية ، مدعوماً بخلفية دينية مشوَّشة ، لأن التوظيف الأيديولوجي هو صيغ بشرية التبادل المادي النَّفعي المغرِض .

وعدم وضوح المعنى الإنساني في ثنائية الدال والمدلول ، وافتقاده إلى الاكتفاء الذاتي بالنسبة للتعاليم المجتمعية المنظِّمة لسير الحياة السوسيولوجية، دفعا بالإنسان إلى زاوية الاشتباك مع جدليات الفوضى التي تأخذ صفةَ القداسة الواهمة .

والإشكالية القاسية في السياقات السابقة هي أن سياسة أدلجة التراث الديني الميكانيكي هي مأزق المعنى السياسي الغربي . وهكذا يتضح أن العلمانية مجرد شعار لا وزن له عند التمحيص، وغربلة الأفكار . فالأداء العلماني هو صيغ خفية للأداء الديني . فمن خلال التوالي الصادم في تضمين المستويات النسقية داخل تكثيف الوحدات الاستبعادية ، قامت الكيانات البوليسية المتغطية بحقوق الإنسان ، والمختبئة وراء أقنعة الأنسنة الطاهرة بانتهاج سياسة " احتراف الانحراف" ضمن تأطير الانغلاق المعرفي الشامل .

فوحدة الانتقال السياسي الفوضوي من غبش الأمية السياسية إلى جدلية الآلة العسكرية تتكرس أكثر فأكثر كوحدة وجودية تحل مكان التنظيم العقلاني للقيم الإنسانية . فذهنية الأنساق كلما ابتعدتْ عن مركزية القوة المادية لشريعة الرصاصة اقتربتْ من التفكير الحالم الدائر في أفلاك الكلمة . لكن الأدلجة في محيطات عسكرة كوكب الأرض عن طريق انتهاج فلسفة القطب الأوحد ، ستؤدي إلى تكريس الشرخ بين الشرق والغرب .

فالمشكلة الفلسفية في صميم نواة المركزية الفكرية للسياسات المأزومة هي عدم فهم ثنائية التفريغ والإحلال . فالنظام العالمي الجديد المتشكل من القطب الواحد الأوحد يعاني من أزمة التلاشي المتسارع ، لأن أمريكا متأثرة بالفراغ في جوفها ، أو مركزية منبع سطوتها ، بفعل التآكل في النظام الاجتماعي الهش الضاغط على أنظمة مالية منكسرة .

وفي زحمة هذا التسارع المتداعي في التفريغ ستجد الحضارة الأمريكية نفسها قناعاً بلا وجه فتدخل في سباق مرعب مع الزمن الطائر بلا انتظار، وعندها تختلط الأوراق فيبدأ نظام الدولة الأمريكية بمحاولة إحلال قيم المنطق في قوالب اللامنطق داخل أدق تفاصيل التقاطعات المجتمعية ، أي إنه يحاول ضخ القيم الفكرية والمالية والعسكرية في بؤر مركزية مثقوبة من كل الجهات ، وهذه الصدمة ستزيد

من حجم المأزق الأمريكي[5] .

ولكن ينبغي أن نشير إلى أن الحضارة الأمريكية _ رغم أزماتها المتكاثرة _ ما زالت تمسك بخيوط اللعبة . لكن قبضتها تضعف بشكل عنيف للغاية داخلةً في العد التنازلي الرسمي في ظل صعود الصين وروسيا .

وإذا أردنا تأصيل تحركات العناصر المنسية المشيرة إلى التمركز العبثي، يجب أن ننتبه إلى الوجه المختفي خلف أقنعة المدلول السالبي المحض . فالعناصرُ المنسية في دوامة المجتمع مثل السود والفقراء ، والتمييزُ ضد الأقليات ، واختزالُ الجسد الأنثوي في بؤرة الجنس الاستقطابي . كل هذه العوامل تعكس صيغَ الحلم المتكسر في أزمة المعنى الاجتماعي .

وتتجلى المشكلات الاجتماعية الأمريكية في ازدياد نسبة الفقر والبطالة والجريمة، وانتشارِ تعاطي المخدرات ، وارتفاعِ نسبة الاغتصاب، وتشتيتِ القوة

---

(٥) هناك رواية للكاتب الأمريكي الحائز على جائزة نوبل وليم فوكنر بعنوان"بينما كنتُ أُحْتَضَر ". وهذا العنوان نتاج الإفرازات الاجتماعية المأزومة في ملابسات المجتمع الأمريكي الذي يعاني من انكسار القيم . ونقرأ في أعمال هذا الكاتب انهيارَ المجتمع الأمريكي المنتكس في المجال الوجداني، وانهيارَ الإنسان في معاناته اليومية في مجتمع عنصري رافض له . وكل هذه الإشكاليات الشرسة أسَّست مفاهيم الشطط الطبقي، والتفرقة العنصرية، وخرافاتِ نقاء العِرْق المدعومة بنظام أيديولوجي يستند إلى لون البشرة كمبدأ إستراتيجي وهمي . فالاحتضار الجمعي الذي يختزله المجتمعُ في دوائر عزلة الفردية الجمعية ، ويختزله الفردُ في إشكاليات المجتمع المتشنج الموغل في التضييق على أبنائه ، هو احتضار المأزق الوجودي الحاد المنتفخ في متواليات المشاعر الإنسانية بصورة يصعب معها علاجه . وعلى الرغم من ضخامة هذا البالون المتعاظم ظاهرياً ، والذي منظره قد يُفزِع من يراه ، إلا أنه سيظل في مهب الريح تتحكم فيه كيفما تشاء ، ومصيره في يد دبوس صغير يقضي على الحلم المتمرد على شريعة الأنسنة الأخلاقية .

العسكرية في أنحاء العالم ، والتفرقةِ العنصرية بين البيض والسود التي تجلت مظاهرها في اغتيال دعاة الحقوق المدنية السود مثل مالك شباز (مالكولم إكس سابقاً) ، ومارتن لوثر كنج ، وعدمِ قدرة السود على دخول كنائس البيض ، والأزماتِ الاقتصادية العنيفة ، والتفككِ الأسري الناتج عن عدة أسباب ، منها : ارتفاع نسب أرامل الجنود الأمريكيين الذين يُقتَلون في حروب أمريكا .

فهذه العناصر في دائرة التجريد الفكري تشير إلى حجم المشكلات المصيرية . وكما أن زلات اللسان تكشف عن خفايا القلب في الغالب فإن العناصر المنبوذة في المجتمع هي الدالة المركزية المشيرة إلى نواة العقلية السياسية .

ويظل الانهيار الشامل يطرح نفسه كتيار فكري مؤطَّر ضمن سياقات التمركز السياسي . فالتتابع غير المنطقي لأدلجة علم اجتماع السياسي ينبع من الوِحْدَوِيَّة النفعية الشخصانية للكيانات المشتَّتة. فالمنظور الأمريكي للوهم هو ذات المنظور غير الواعي لما يحيط به من إجراءات ميكانيكية تقود دلالةَ المعاني إلى فوضوية الأفكار المعبِّرة عن الحلم لفظياً .

ومع تنامي حواجز الاستعلاء الوظيفي ينتاب التجريدَ السياسي لمحاور النظام الاجتماعي رغبةٌ ملحة تفرض على الأنساق المجتمعية شروطَ الدلالة النمطية القاتلة لحراك سوسيولوجيا الاقتصاد البنائي ، فيغدو النظام الدينامي إجراءً جدلياً بحتاً في مجتمع نافٍ للنواحي الاجتماعية ، مدعوماً بالتطرف السياسي . ولا مفر من دراسة الظواهر المحدِّدة لمسارات الالتقاء بين الانكسار الاجتماعي المستند إلى جدلية المعنى ، وبين الانكسار الاقتصادي المعتمد على نمط إسرافي هستيري ينحو منحى العلاقات التفاخرية بين طبقات مجتمعات تضمحل لصالح سيطرة الفوضى الخلاقة المقنَّعة ، وتكريسِ زواج الثروة بالسلطة .

وكلما استمر الاتجاه نحو تراكيب التسييس الطاغي، امتدت في أوصال الحضارة _كنظام وهمي مؤقَّت_ ظلالُ الأنطقة الاقتصادية التي تتقمص أنسنةَ

الكيانات البشرية من أجل تحويل الذاتية الفردية إلى مشروع استثماري مُدجَّن يتماهى مع التفكير الاقتصادي الشرس .

وإذا فهمنا التركيب الوظيفي للهاجس الأمني ، أدركنا حجمَ المعاناة في بؤرية تثوير السلوك الإنساني . فالإنسان صار ظلاً باهتاً لحزن يعبر الوجوهَ ، فهو يدخل في هاجس الوهم ، ويخرج من دوائر الانكسار الفكري ، لأن القيمة الحضارية الشكلية عاجزة عن زرعه في محيطات الأنسنة المعرفية العامة التي تقود إلى الحلم بمستقبل أقل وحشيةً . كما أن الإنسان _ وحيداً _ لا يقدر على قيادة نفسه إلى بر الأمان من خلال المنظورَيْن الروحي والمادي .

فالإشكالياتُ الحضارية دجَّنت الفردَ ، وقامت بالحجر عليه ، لأنه في نظرها إنسان فاقد لأهلية الاضطلاع بالمسؤولية السياسية الخارجة على أنساق التنميط الوهمي ، فصار التشظي العابثُ هو الذاكرة السيكولوجية لإرهاصاتِ الوهم المتطابق مع مأزق التحول الاجتماعي المسيطر عليه لصالح الأبيض ضد الأسود .

فالتكثيف الدلالي في عمليات نمذجة التمايز المتشعب إلى انتكاسات شعب غارق في الأمية السياسية نتيجةٌ طبيعية لحجم الضغط الإعلامي الموجِّه لمسار المجتمع برمته ، لأن المعرفة السياسية في ذهن الإنسان الغربي هي حصيلة وسائل الإعلام السائرة نحو أداء اجتماعي انعزالي صارم وقمعي ، يرتدي لكل جريمةٍ قناعها . فالأقنعة الإعلامية هي الدلالة الوهمية لانكسار المعنى التكويني للهاجس الحالم ، حيث يتحول الحلم إلى كابوس حقيقي ، وتؤول التراكيب الإنسانية إلى بناءات غارقة في سادية كاميرات التصوير ، ووسائلِ الإعلام المشبوهة .

فالآلة الإعلامية الصارمة والصادمة في آن معاً تحول الحقَّ إلى باطل ، والباطل إلى حق ، منتهزةً انكماش المجتمع الإنساني ، وتقوقعه حول بؤرية السلوك السياسي المغلق ، لذلك فالمجتمع الأمريكي محصور في ثقافة البطاطا المقلية والمشروبات الغازية في مطاعم الوجبات السريعة .

وبعبارة أخرى إن الأمريكي _كفرد _ متخندق في نطاق استحواذي ضيق . وقد سلَّم نفسه تماماً لوسائل الإعلام المؤدلَجة ، حيث تسيطر على عقله وحواسه وثقافته ، وتقوده إلى الوجهة المرسومة مسبقاً . فغدا المجتمع ظلالاً محصورة في ردة الفعل .

***

- ٤ -

إشكالية اقتصاد السياسة وسياسة الاقتصاد

إن الأداء السوسيولوجي الخالي من نطاق التفكير الحر ، والمحصورَ في الشهوانية الاستهلاكية، ساهم بشكل كبير في تحمل دافعي الضرائب عبء الأخطاء السياسية الفادحة للإدارات الأمريكية المتعاقبة .

وقد استغلت التنظيمات المعادية لأمريكا كل أخطاء إدارات البيت الأبيض ، وقامت باستخدام أخطاء أمريكا لتبرير ضربها ، كما حصل في الملابسات المرافقة لأحداث ٩/١١ . فتنظيم القاعدة استند إلى كثير من الدوافع، وقام بتوظيف خطايا الإدارات الأمريكية من أجل شَرْعنة قتل المدنيين ، واستهداف الأبرياء [6] .

---

(٦) تفجير بُرْجي مركز التجارة هو عمل آثم ومحرَّم مُدان قبل كل شيء ، لأنه استهداف للأبرياء . ولكن ينبغي دراسة الذرائع التي اعتمدها تنظيم القاعدة من أجل استئصال الإرهاب الذي يمارسه بعض أتباع الديانات في العالم بأسره . فقد اعتمد تنظيم القاعدة على الدعم الأمريكي المطلق لِ " إسرائيل " لتبرير ضرب أمريكا في عقر دارها . لذلك ينبغي علاج مشكلة ما يسمى بالإرهاب من جذورها ، وعدم الاكتفاء ببعض مؤتمرات حوار الحضارات . فينبغي الوصول إلى عمق الأزمة بين الشرق والغرب للوصول إلى علاج فعال. أما التهرب من المسؤوليات فسوف يخفي النار تحت الرماد، ولا يقود إلى الأخوة البشرية. وقد تتابعت الأحداث بعد ٩/١١ . فصارت نسبة كبيرة من الناس _ في الشرق والغرب_ تسعى إلى معرفة الإسلام والقراءة عنه، فصار الإسلام في قلب كل بيت في أنحاء العالَم ، وصارت اللغة العربية متواجدة في أكبر جامعات العالم ، ويطمح الكثيرون إلى تعلمها من أجل فهم الحضارة العربية الإسلامية ، والطبيعةِ الاجتماعية للمسلمين . وصار الساسة الغربيون والطلاب في أكبر جامعات العالَم ،= =والباحثون في مراكز

وعبر تعميق إمكانيات التبعيض التشريحي في نطاق جزيئات الانهيار الحضاري التي هي عبارة عن ظل باهت لأزمة المعنى الإنساني الحادة ، سوف نجد أن تقاطعات العناصر المنبوذة في معرفية المجتمع تكوّن تياراً مضاداً لحقوق الإنسان من خلال زراعة الكائن الحي في بؤرة أحادية متقاطعة مع الوهم الذي يأخذ مساراً حالماً بغد مشرق . لكن الفرد لا يمكن أن يقطف الورودَ من انهيار المعنى . كما أن ترحيل الأزمات المصيرية عبارة عن دفن النار تحت الرماد لا إطفائها . وهذه العملية مغامرة خطرة من شأنها تفجير الأوضاع الاجتماعية ، وصناعة الفوضى بكل أبعادها ، ووضع مستقبل الأجيال في الزاوية الحرجة .

وفي ضوء هذا الانهيار الفكري الذي يرسم مجتمعاً مثالياً في الذهن التجريدي الخالي من الامتداد الواقعي ، تقوم التنظيمات المعادية لأمريكا مثل " القاعدة " بتثبيت أفكارها وفق الحرب الاستباقية ، ويمكننا تأطير فهم أبعاد فلسفة تنظيم القاعدة في حروبه الفكرية والعسكرية ضمن عدة مستويات عامة :

البحث الكبرى على الصعيد العالمي ، يسعون لتعلم العربية واعتمادها في دراساتهم . وصرنا نشاهد مسؤولين أجانب يتحدثون العربيةَ في وسائل الإعلام . فصار العربي والمسلم في الغرب محط الأنظار مثل الماركة المسجلة ، وتلاحقه عدسات التصوير من مكان إلى مكان . لكننا نعرف أن هذه الملابسات مستندة إلى الإسلاموفوبيا . وشيء مؤسف أن يُنظَر للعربي أو المسلم على إنه إرهابي. لكن الإسلام بما يملكه من مقوِّمات قادر على تصحيح صورته في أذهان الآخرين التي شوَّهها قِلَّةٌ من المسلمين ، وليس أدل على هذا من كَوْن الإسلام هو الدين الأسرع انتشاراً على كوكب الأرض رغم كل الهجمات ضده والتضييق عليه ، والعمليات المنهجية لتشويه صورته المشرقة. وهذه معجزة إلهية بحد ذاتها تستحق التأمل. ففي الحديث الذي رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٤٧٧) وصحَّحه ووافقه الذهبي : أن النبي ﷺ قال : ((ليبلغن هذا الأمر ــ الإسلام ــ مبلغ الليل والنهار ، ولا يترك اللهُ بيتَ مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدِّينَ بعز عزيز أو بذل ذليل)) .

١) تأسيس الوعي السياسي الهجومي في مواجهة أمريكا ، عبر الوصول إلى ذروة الحدث المندفع انطلاقاً من نقطة الصفر في مدة زمنية قصيرة للغاية لا تسمح للخصم باتخاذ إجراءات دفاعية . والمعنى التطبيقي لهذا المبدأ هو الوصول إلى رأس القطب الأمريكي الأحادي داخل النظام العالمي الجديد بشكل مباشر ومُوَجَّه .

والوصول إلى ذروة الفاعلية القطبية الشاملة يستلزم تسليط مبدأ الهجوم في الداخل الأمريكي عن طريق استهداف الناس،والمرافقِ الحيوية، دون أي تمييز للأهداف المدنية أو العسكرية. وهذا يعني أن تنظيم القاعدة _ عبر إيمانه بالحرب الاستباقية _ سينقل المواجهة مع أمريكا في عقر دارها كي تفقد توازنَها في محيطاتها الاجتماعية الذاتية . وهذا بالقطع ينسف جغرافيةَ الامتداد الأمريكي الكلاسيكي ، ويمنع كلَّ الروافد التي تغذِّيه .

٢) حشر النظامِ الأمريكي في زاوية السقوط العناصري الشامل بحيث يتم استئصال احتمالات الطفرة الناهضة ، ومنعُ مشاريع عودة القطار المنحرف إلى السكة. وهذا يتطلب إبعاد القطار عن السكة أو إبعاد السكة عن القطار. والوسيلة الأكثر نجاعة_ حسب معتقدات تنظيم القاعدة_ في تشريح جسد الدولة الأمريكية، هي إقامة حاجز معنوي مادي هائل يقف سداً منيعاً بين قطار الأمركة كنظام سياسي ذي استعارات ضاغطة على محيطات الأنسنة ، وبين سكة التواجد الحقيقي العالمي .

وتنظيمُ القاعدة يرمي من وراء هذه العملية إلى إتمام عملية فصل أمريكا عن العالَم ، لكي تفقد هذه الإمبراطورية قدرتها على الامتداد والإمداد ، فتتآكل ، فتسقط نهائياً لأن الهواء والماء قد قُطِع عنها معرفياً . وإذا سقط العقلُ المدبِّر سقط الجسدُ نهائياً ، حتى لو كان منقوعاً في الطعام والشراب والثروة. وهذه _ بالضبط_ فلسفةُ تنظيم القاعدة في تنويع عملياته داخل أمريكا وخارجها ، حيث

يهدف إلى حصر الأداء الأيديولوجي للسياسة الأمريكية في خانة رد الفعل لا الفعل ، وهذا هو الفخ الشمولي الذي تنصبه " القاعدة " من أجل تحقيق حلم السيطرة والنفوذ .

كما أن أعداء أمريكا في الشرق والغرب سيعملون _ بكل طاقة _ على إدخال النظام الرأسمالي الأمريكي في فوضى العقلية الذاتية ، مما سيؤدي حتماً إلى شروخ هائلة في الجسد الأمريكي الذي يبدو أمام وسائل الإعلام متماسكاً ، لكنه _ في الحقيقة _ يعاني من احتراق داخلي في مدار مغلق .

٣) تأسيس البؤر الفكرية المحيطة برمزية الدلالة الصاعقة ، من أجل ضرب الحصار الشامل على العقيدة الأمريكية التفكيكية . فنظام الذهنية الهادفة إلى تعرية النظام الرأسمالي من رمزية الوعي الكلي ، سيُنْشِئ تياراً رافضاً لمشروع الأمركة (العولمة) ، مما يؤدي إلى انتكاسة في المشروع الخارجي لصالح التقوقع الذاتي حول الداخل .

وإذا استمر تنظيم القاعدة في نقل المعركة إلى الداخل البؤري الأمريكي ، سيتكرس المشهد الواعي الضاغط على سوسيولوجيا الأداء السياسي الركيك، الأمر الذي يدفع باتجاه تقليص حركة الإدارة الأمريكية على مستوى سياساتها . ومع استمرار عملية الضغط المنهجي على صورة أمريكا ، ستتدفق فضاءات متعددة ضد عسكرة السياسة [7].

---

(٧) إن صورة أمريكا ركيكة في أنحاء العالم . فإيران مثلاً تصف أمريكا بالشيطان الأكبر الذي يغوي الآخرين ويوقعهم في الهاوية . وابن لادن زعيم تنظيم القاعدة كان يسمِّيها هُبَل العصر ، وهو الصَّنم الأكبر المعبود في الجاهلية ، ويتوجه الناس إليه لنيل حاجاتهم. والزعيمُ الشيوعي ماوتسي أطلق على أمريكا وصف نمر من ورق . أمَّا المتدينون النصارى في الغرب فيسمُّون أمريكا يهوذا الإسخريوطي الذي خان السيد المسيح ﷺ، وأدار ظهره

٤) محاصرة الإدارة الأمريكية في مناطق نفوذها من العالَم بكل الطرق المدنية والعسكرية ، وهذا يقطع الخطوطَ المتوازية التي تعتمد عليها الرأسمالية في لعبة العصا والجزرة على الصعيدين : ميكانيكا السياسة العسكرية ، وانكسار الرؤى الإنسانية الأخلاقية لقيمة الحرب .

فالفعل الحضاري السلبي الذي يجتاح العالَمَ ، ويدمر قيمَ الحلم البشري ، ويقضي على البيئة والمناخ ، ويُؤدلِج محيطاتِ الشعور الكينوني للمجتمعات في أنطقة زوايا التوحش والتمدد الانتكاسي (تحول الروح إلى مادة) ، هو فعل منهار يتم توظيفه من قبل الجهات المتحارِبة ضمن ثنائية الفعل ورد الفعل .

وإذا أرادت البشرية تفعيل منهجية العيش المشترك على كوكب الأرض ، فلا بد من إيقاظ كيان الإنسان الاستقلالي المندفع الحر كقيمة رفض ثابتة لا مفر من تكريسها ، وذلك من أجل القضاء تماماً على التكريس الأسطوري لإشكالية الوهم المتراكب .

وعبر تأسيسات المناحي النَّفسية لتداعيات السقوط الحضاري في مساحات الزمكان الافتراضي ، تتجذر قيمة التثوير الرامي إلى تعرية الفعل الحضاري السلبي من المصداقية المزعومة ، فتظهر الميكانيكا الفوقية المجتمعية للتصدي للبنية التحتية ضمن طبقات الإمبراطورية الواحدة . فالتأسيس الخيالي لواقعية الماديات الذاهبة في المعنى المشكوك فيه ، إنما هو إطار عمومي يخنق الهستيريا العسكرية الفوضوية في مهدها . لذا فإن تحرير المعنى السلبي من السالبية يُعد خطوةً أساسية في طريق بناء الفعل الإنساني الكَوْني الحقيقي الذي لا يختبئ وراء أقنعة الحضارة .

لتعاليمه عبر بيع الإيمان بثمن بخس، وفق ما جاء في الأناجيل.= =وهناك حركاتٌ إسلامية معادية لأمريكا تسمِّيها الأعور الدجال الذي يملك قدراتٍ عجيبة يستعملها من أجل تأليه ذاته من دون الله تعالى .

لكن أشكال البناء الذاتي لمشاريع عسكرة السياسة تتمحور حول شخصانية انكسارها . فالطاقة الخارجة من الجسد الهزيل لا يمكن تعويضها . والمشكلة الأساسية في الفعل الدبلوماسي الأمريكي أن إدارات البيت الأبيض المتعاقبة بعثرت طاقتها في العالَم يمنةً ويسرة . كما أنها قامت بشن حروب مفتوحة لم تعرف كيفية إغلاقها ، مما استنزف طاقتها المالية والبشرية . ومهما استولت على النفط ، فإنه لن يغطيَ خسائرها الفادحة . كما أن أمريكا كرَّست تشتيت قواتها وقواعدها العسكرية في كل أصقاع العالَم دون تنظيم ، وكل هذه العوامل امتصت طاقة الدولة الإمبراطورية المريضة . ولأن الجسم هزيل ، لم يعد قادراً على إنتاج طاقة ذاتية تقوم بسد حجم المخرَجات ، أي إن عدم قدرتها على تأسيس مدخَلات تكافئ أو تتجاوز المخرجاتِ سيجعل منها مثل البناية الضخمة التي يتم إسقاطها عن طريق تفريغها من الهواء ، فيصير الضغطُ الخارجي أكبر من الداخلي، فتنطبق الجدران على بعضها ، وتهوي البناية الضخمة.

فالأزمة المالية التي تضرب كالإعصار هي قطرة الماء التي أفاضت الكأسَ ، ووضعت النظامَ الأمريكي على سلم العد التنازلي كأداء غير منضبط ، لكن الكأس ما زالت مليئة بالمفاجآت غير السارة بسبب غياب الرقابة الحكومية على الأنساق الاجتماعية والعسكرية والاقتصادية المتحررة من التماسك القِيَمي . فالمسار التاريخي المنطقي يُثبِت تداولَ الحضارات كنظام تم التحقق من صحته على مدار العصور ، ولا يُعرَف له معارِض أو حالة خاصة استثنائية .

***

- ٥ -

فلسفة التقاطعات في تآكل الأسطورة الحضارية

في ظل التأسيسات الأحادية لتقاطع الثنائيات المتمركزة في سياسة انكسار المعنى تتكشف الدوافع الحقيقية لسياسة تواطؤ الوهم الاجتماعي مع الأسطورة السياسية، حيث يتم استثمار الخديعة في سياقات الحياة الإنسانية ، ضمن ثنائية تقاطع المصالح .

وهذه البنية الدافعية للانكسار الأخلاقي في صور القوالب الفلسفية لسيكولوجية التعتيم الإعلامي المغرِض سرعان ما تتآكل في خضم الاستبعاد الأحادي للرؤية النظرية للعالَم . فالنظام المتوازي مع تجريدات انكسار المعنى هو النظام السياسي المتمركز حول الرجل الأبيض باعتباره نزعةً مركزية ترى نفسها الأجدر بالسيادة المطلقة على المعاني والألفاظ .

وفي ظل وجود هذه الإرهاصات المفكَّكة ، تحال البنى المنطقية إلى تداعيات وهمية ، حيث تتكرس ماهيات الأسطورة كأطر سياسية ذات منحى اجتماعي . كما تتوزع السياقات السياسية الضبابية على مستويات الذات المتشظية في التفوق العِرقي المخيالي[8] .

---

(٨) المخيالية تعني تمحور الأبعاد الفلسفية حول تقاطعات الانتشار غير الواقعي في مسطحات تشتت الوعي ، وبعبارة أخرى هي ارتباط الدالة الأسطورية في أبعاد التجريد الواقعي بغية تنظيم عمل إسقاطات الخرافة على المحيط الزمكاني الملموس (الإحساس الفعلي بالزماني ــ المكاني) لإلباس الوهم شكل الحقيقة ، وصبغ الفرضية بقناع النظرية، وصهر المشكوك فيه في بوتقة المسلَّمات .

وعلى الرغم من التأسيس المكسور في متوازيات العلمانية الظاهرية التي تُقدَّم على أنها فصل الدِّين عن الدولة _ وهذا تعريف بسيط مبتدئ قد يغدو تعريفاً تضليلياً في مراحل متقدمة فكرياً _[9]، نجد أن المسار الأيديولوجي الغربي قد تكرَّس فعلياً ، خصوصاً بعد أحداث ١١/ ٩ . وهذا المسار لم يكن ردة فعل سريعة ومنقضية ، أو زلة لسان عابرة ، بل إن جذوره تضرب في أعماق البنى المعرفية .

وفي ظل هذا السقوط الأخلاقي المقنَّع تُحال القيم الفلسفية إلى نظام عسكرة الفكر، مما يؤدي إلى تكوينات عالمية تحت الاستهداف ، وأكثر عرضة للمخاطر .

وكلما تكاثرت المستويات الميكانيكية في تفتيت الأنماط الفكرية لطبيعة بناء الدولة أدركنا حجم الابتعاد المقصود عن الأنسنة البؤرية. فأية دولة بوليسية في العالم _ في نطاق كينونتها المركزية _ هي التجمع الفلسفي للتوحش وفق أساس إظهار المادة المحصورة في توابع الاستهلاكية الشهوانية . وكل نظام سياسي مبني على الوهم سوف ينتزع قيمَ الحياة الواهمة من واحدية الهوة المتسعة بين الأنا والأنا من خلال النظرة المسارية لانطفاء الروح .

فالأداء الروحي غائب تماماً في زحمة المادية التي تقتلع روحانيةَ الأداء الفردي لتجعل منه بؤرةً مركزية في جسد جماعي دخيل ابتزازي وغير ملائم لتلقي طموحات الفرد ، وهكذا يضيع الفردُ وتضيع الجماعة .

والأنظمة العسكرية أحالت مستوياتِ أنسنة المشاعر المعرفية إلى جدران فولاذية ذائبة في حاملات الطائرات والمروحيات العسكرية وأكثر آلات القتل تطوراً

---

(٩) لفظة " العَلْمَانية " بحد ذاتها مضلِّلة لأنها توحي بارتباطها بالعِلْم ، وهذا غبش استعاري واهٍ . فهي تعني فصل الدِّين عن الحياة تماماً، وفصل الدنيوي عن الأخروي .

. وفي ظل هذا الزخم البنائي على متكاثرات الهيمنة العسكرية تغدو الروح جزءاً ميكانيكياً مادياً كالحديد والنحاس والرَّصاص .

فالنظام الرمزي لشيفرة العلاقات الاجتماعية المعتمدة على عسكرة السياسة ، ليس نظاماً حقيقياً لأنه مبني على ردة الفعل الرأسمالي لا الفعل الإنساني الحضاري العقلاني . أي إن هلامية البناء التفاعلي الفردي على أرضية الجماعة الاحتكارية تقود إلى حالة من تشظي الوعي ، وغيابِ التيارات الشمولية الكلية الرامية إلى فهم أكثر عمقاً للحراك الإمبراطوري الذي يُفترَض أنه متحضر .

لكن صياغات الافتراض الجزئي تذوب في افتراضات أكثر تطرفاً في سياسة قوى الاحتلال . فالداخل الإمبراطوري هو شظايا البعد الرأسمالي التطبيقي ، ومشاكلُ إفرازات التطبيقات المتسلسلة في إرهاصات عسكرة الأبعاد الروحية . فالإمبراطورية الأمريكية لم تقم بإحلال المادة في بؤرة الروح فحسب ، بل حوَّلت الروحَ إلى جزء مادي جدلي تكريسي يتواءم مع أبجدية حياتية ركيكة .

وقد وصل كوكب الأرض إلى القرن الحادي والعشرين أكثر بشاعةً ودموية ، أكثر فقراً ومرضاً وجهلاً ، أكثر حقداً وكراهية وانهياراً . وهذا أمر غريب فعلاً ، فالمفروض أن العالَم قد وصل إلى مرحلة الرشد العقلاني لتكوين عالَم الجمال والحضارة مستغلاً كل الإنجازات التي توصل إليها الإنسان ، والتي تُعتبَر تراكماتٍ على مر العصور ، وخلاصة الخبرات والمعارف والاكتشافات والاختراعات، لكن الواقع يقول غير ذلك، وهذا مرده إلى أن الأنظمة السياسية المتنفذة غير قادرة على تثبيت الموجب ونفي السالب . وهذا أدى غياب الحس الشعوري الأخوي بين الشعوب .

فالإنسان أضحى مشروعاً استثمارياً في انتظار التاجر القادر على الدفع . وبعد كل هذه العصور اكتشفنا أن كوكب الأرض ما زال يتخبط في سوق نخاسة ، حيث العبيد والجواري ما زالوا يتواجدون في السلاسل . والنخاسون ينتظرون الأسعارَ

الجيدة ، وهذا كل نتاج طبيعي للاندفاع الهستيري في جدلية الفهم القاصر لمعنى الحضارة الإنسانية الكَوْنية .

وعدم فهم الطبيعة التاريخية لبنية الحضارة البشرية تنبع خطورته من تيارات الإحالة المنهجية المتواصلة ، أي إن القيم الروحانية يتم إحالتها إلى إفرازات نقطية كيميائية التركيب بصورة تجريدية بحتة . فعلى سبيل المثال يصير الدمعُ الذي هو اختزال مشاعر وجودية لتحركات الإنسان داخل نفسه والبيئةِ المحيطة به مِلْحاً يتركب من عنصري الكلور والصوديوم . ويصير الماءُ الذي هو التركيبة الرسمية للحياة ، وضمانةُ استمرارها ، عبارة عن هيدروجين وأكسجين . ويصير الدم الذي هو شرعية الوجود الإنساني عبارة عن تراكيب كيميائية محضة خالية من الإحساس الحياتي بالديمومة والتواصل والتفاعل .

وهذا الأمر بالغ الخطورة لأنه يُحيل الإنسانَ خاصةً، والكائنات الحية عموماً إلى أشكال مادية مجرَّدة من أنطقة المشاعر، فيتمحور الكَيْنون الإنساني المتفرِّد إلى إطار كيميائي عناصري متكرر وظيفي يؤدي دورَه المنشود في واحدية استنزافه الجائر ثم يُضرَب به عرض الحائط .

ومن خلال البنى الإحلالية داخل أنساق الجدليات السياسية نجد أن النظام الرأسمالي الأمريكي قد أَنْسَنَ الاستهلاك الشهواني ، وأعطاه بعداً أكثر قدرةً على عبور القارات من خلال زراعة الذات الإقليمية في الأبعاد المادية لسياسة السيطرة .

وكما أن الأبعاد الاجتماعية الركيكة الزائدة عن حاجة السعة السياسية تؤثر سلباً في مجتمعات الآخرين ، فتُحال المعاني البشرية إلى إيقاعات أكثر تشدداً ضد

نمذجة الطبقات الاجتماعية ، فإن المنحى الفوضوي للإيقاع الرأسمالي[10] بدأ يخفت تدريجياً بفعل الأزمات الضاربة في صيغ المجتمع بكافة أشكالها الروحية والمادية . وبالقطع فهذا هو الشلل النصفي الذي يسبق الشلل الكلي في صياغات الاقتصاد الاجتماعي بكل إفرازاته الحياتية المعاشة .

وما البنية الفلسفية في جسد الحضارات المتآكلة إلا شرعية الوهم الأيديولوجي. وهذا يعكس كيفية بدء المرض في نخر الجسد الذاتي ثم العدوى المنتقلة إلى الآخرين .

وكلما حاولنا إدراك الدلالة المنطقية لانعدام المنطق الحضاري لم نجد سوى عقلية الانكماش الروحي ، لأن فاقد الهوية الحضارية لن ينجح في تأسيس المعاني الفكرية التي تنتشل الإنسان من مأزقه الوجودي الحرج .

---

(١٠)النظام الرأسمالي يشكِّل إسهاماً فكرياً مخلخلاً يختفي وراء قناع الفكر المالي الاقتصادي الحر . لكن المنحى الفوضوي يُقصَد به ذلك الغليان الداخلي في طبيعة الفوران الفكري العبثي الذي يصير جزءاً ماضَوِيًّاً يحمل نذر النهاية نتيجة تصدير الطاقة بشكل كثيف للغاية دون وجود مصادر بديلة تعمل عمل الروافد التي تجبر النقصَ . ومن هنا نفهم مشكلات النظام الرأسمالي على أنها تفاعلات طاردة للطاقة دون وجود بديل إحلالي يُعوِّض النقصَ . فالشمس ــ مثلاً ــ تواصل إنارة العالَم عبر بعث الطاقة= =وفق انفجارات كثيفة وشرسة للغاية منذ ملايين السنين ، ولكن سيأتي وقت تنطفئ فيه هذه الشمس، وتصبح كرةً سوداء صامتة، لأن الطاقة التي ترسلها لا يتم تعويضها . فالنظام الرأسمالي الأمريكي لم يتصدر ذروة المشهد العالمي إلا في القرن العشرين فقط . وكل المؤشرات تدل على أن القرن الحادي والعشرين سيشهد تحدياتٍ خانقة تمس الإمبراطورية الأمريكية ، لأنها حضارة قادرة على الاستهلاك اللامنطقي . فقد ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية كقوة عالمية كبرى وأحادية ، ثم أخذت تواجه مشكلاتٍ جمة تعيق تقدمها ، وتؤثر سلباً على مكانتها العالمية كقطب أوحد .

وهناك سياسات عالمية أشبه بسيرك ، فيه أشخاص يخاطرون بحياتهم بالمشي فوق الحبال بلا شبكة واقية، وهم يفعلون ذلك لجني المال الوفير ، لكنهم يُدخِلون حياتهم في مقامرة مرعبة، والشخص الذكي لا يقامر بحياته من أجل المال.فلو اكتسب مالاً وفيراً بعد أن ضحى بحياته فلن يستمتع به وإنما سيذهب إلى ورثته .

وهذا ما تفعله سياسات الفوضى في أنحاء العالم ، فهي تقامر بحياة الكل ، ليبقى الجزء متمتعاً بكافة الامتيازات . وكل أجزاء هذه المقامرة غير المحسوبة تدفع ثمنَها الطاقةُ الدافعة للفاعلية .

وفي زحمة تفشي الأساطير السياسية تطفو على سطح المعاني العالمية تياراتٌ موزَّعة على متواليات الانكسار المعنوي. الأمر الذي يقود إلى أدلجة النظام السياسي الرأسمالي وإحالته إلى صيغة أكثر تجريداً في انتكاسة الوعي السالبي .

وكلما تحولت جزيئات العناصرية السُّلطوية إلى سلطة سياسية قمعية، تحوَّلت الأنساقُ البشرية إلى إفرازات ميكانيكية تُشكِّل في مجموعها الكلي تاريخاً مأساوياً لسير المتوازِيات التنموية . وبعد كل الحشد الأيديولوجي في التسييس المتعمد يختفي الوهج في تقاطعات السياسة الهادفة إلى إنقاذ البشرية لتحل مكانها إشكالية البنى الدينامية الآخذة في التدهور . وعندها يوضع الكائن الحي في مواجهة داميةٍ وغير متكافئة مع ذاته المقابلة في أحضان بيئة الخراب ، حيث انبعاث الغازات السامة في تزايد هستيري ، والاحتباس الحراري آخذ في التزايد دون إجراءات ملموسة على أرض الواقع ، وقطعِ غابات الأشجار يتوالى لدرجة جنونية . وهذا كله سيقود الأرض إلى مصير مظلم . والعجيب أن الدول الغربية التي تضم أكبر علماء العالَم في مجالات العلوم والبيئة ، وتعرف أكثر من غيرها خطورة أفعالها في تغيير المناخ ، والآثارَ المرعبة لسياسة استنزاف موارد البيئة للحفاظ على الحلم الإمبراطوري في اقتصاد قوي عالمي راسخ على أنقاض العالَم ، ما زالت تواصل التأثير سلباً في البيئة بفعل جشع أصحاب المال ، وطموحهم اللاشرعي في إبقاء

اقتصادياتِ بلادهم في القمة على حساب المناخ والبيئة والحلم البشري وفناء هذا الكوكب .

وعلى الرغم من كل التحذيرات من أكبر العلماء الغربيين الذين يتصدرون المشهدَ العلمي العالمي، ويُحسَب لهم ألف حساب في مشاريع الحكومات والمؤتمرات والندوات ومراكز الأبحاث والجامعات وعالَم التأليف والنشر، ما زال الغرب مستمراً في تلويث البيئة . فهو كالقطار الذي يسير إلى الهاوية المرعبة بسرعة هائلة ضارباً عرض الحائط كل إشارات التنبيه ، وتحذيرات البشر الذين يعرفون جغرافية المكان.

- ٦ -

نتائج الفعل الإمبراطوري الركيك

إن المشكلة الأساسية في السياق السياسي الغربي بوصفه قائد المسيرة العالمية ، والمقطورة الأولى في سلسلة عربات القطار ، هي أن الغرب يريد الحفاظ على اقتصاده ومكانته في المحافل الدولية على حساب البيئة والمناخ . وهذا التفكير غير المنطقي يعكس الأنانيةَ الخلاقة. فهم يريدون عيش اللحظة الراهنة فقط دون التفكير في مستقبل من يأتي بعدنا . فالمنهجية المتبعة عندهم هي " أنا وليكن الطوفان من بعدي "، وهذه هي نواة أدبيات النظام السياسي لما يسمى بالعولمة .

فالذي يحدث هو تصدير المشاكل العالقة _ الكوارث البيئية ، الفساد الإداري، تداعيات انهيار الاقتصاد ، المأزق الأخلاقي للفرد والمجتمع ، سير قطار كوكب الأرض إلى الطريق المسدود ، أزمة المعنى الإنساني ، غياب الحلم ، ماضَوِيَّة المستقبل[11] وموته قبل أن يأتي ، الاستنزاف الجائر لموارد الطاقة ... إلخ _ إلى الأجيال القادمة ، ونقلُ مشاكل الحاضر إلى المرحلة الزمنية التالية بكل تعقيداتها وضبابية ماهيتها وأبعادها بدون إيجاد حلول فعلية .

وللأسف فإن تصدير الأزمات للقادم بعدنا هي سياسة متبعة في كثير من

---

(١١) هو انقضاء التعبير التبريري لشرعية المستقبل باعتبار أن الحاضر النازف من كل الجهات قد سلب دوائرَ الشرعية المنطقية الاعتبارية من المستقبل، وهذه الحالة بالغة التعقيد ، كيف لا وهي تنبثق من كينونة واحدية الحاضر الخشن الممتد على مساحةٍ أوسع من حجمه الطبيعي، فلا يقوم بإفساح المجال لقدوم المستقبل . وبالطبع فهذه الحالة نتاج دينامي منطقي للتخندق في اللحظة الراهنة ، وعدم التفكير في القادم من وراء التلة غير المنظورة فلسفياً . أي التمركز في اللذة الآنية مجرَّدةً من المسؤولية .

الأماكن حول العالم . فعلى سبيل المثال كل الإدارات الأمريكية تقوم بتصدير مشاكلها العالقة ، وتوريثها للإدارة القادمة ، كما أن الاستنزاف العنيف للنفط سيقضي على وجوده في المستقبل القريب ، لكن غالبية الدول النفطية وغيرها _ رغم علمها بهذه الحقيقة_ فإنها اختارت عيش متعة اللحظة الآنية دون التفكير في الماوراء البشري . فهذا التخندق في اللحظة الآنية الأنانية[12]التي تؤول إلى

---

(١٢) هذا المصطلح له خلفية بنائية صادمة ، حيث إنه يتناول قصر النظر في الأمور السياسية ليس نتيجة الغباء أو الجهل، بل نتيجة الغطرسة وغرور القوة الآسر . فالشاب القوي المتقوقع في عوالم الوهم لا يرى شيخوخته إلا حينما تضربه كالإعصار فتقضي على كل أحلامه بشكل مفاجئ مباغِت . وكذلك الحضارات القوية المغرورة تعتقد أنها ستكتب نهايةَ التاريخ ، وهي الحاكمة المطلقة السيدة التي تفرض وجهةَ نظرها على أنساق التاريخ الكوكبي كاملاً دون منازِع أو مناقشة. وهذا الغرور المضحك أستغرب كيف يصدر من الحضارات العالمية الكبرى التي تحوي مفكِّرين وفلاسفة وعلماء وباحثين على درجة عالية قرأوا تاريخَ الأرض بكل جوانبه ، ويعلمون تماماً أن الحضارات تتداول ، وتنتقل من الطفولة إلى الشباب إلى الشيخوخة إلى الموت.والأمثلة واضحة للعيان لا تحتاج _أصلاً _ إلى علماء، فأين ذهبت حضارة ثمود والفراعنة وغيرها ؟ . أين ذهبت الحضارة الإغريقية أو الصينية أو حضارة الإنكا والمايا ؟ . أين ذهبت الحضارة العربية الإسلامية التي حكمت كوكبَ الأرض عشرة قرون ؟! . وللأسف فإن أمريكا تعتقد أنها الاستثناء من هذه القاعدة . وقد وجدنا مفكراً بسيطاً مثل فوكوياما في كتابه " نهاية التاريخ " قد ارتكب كوارث منهجيةً في البحث العلمي يخجل من ارتكابها طالب مدرسة . وهذا إنما ظهر نتيجة القوة المخادعة المؤقَّتة الذاهبة إلى الزوال حتماً . ومن الجدير بالذكر أن مبدأ " نهاية التاريخ " طرحه المفكر المصري د. عبد الوهاب المسيري في كتاب له بالإنجليزية صدر في سبعينات القرن العشرين ،= =أي قبل أن يطرحه فوكوياما بعشرين سنة تقريباً ، وهذا يدل على أن فوكوياما مجرد مُقلِّد .

وقت نحس مستمر سيهدد الوجودَ البشري على الأرض قاطبة ، وليس هو إلا انعكاساً طبيعياً ومتوقَّعاً لهيمنة ثقافة الاستهلاك الفج على متواليات إنتاجات المستوى المشاعري للكائنات الحية في محيط عالمي خانق ، يمدح المجرمَ ويدين الضحيةَ[13].

لكن كيانات التشييد السياسي في المحيطات الخانقة يختلف جذرياً عن تأسيس الوعي التسييسي في المجتمعات المفتوحة ، لأن المحيط الخانق هو إشكالية اضطراب متوازِيات الوعي الإنساني ، أي إن الإنسان في سعيه المتواصل نحو تعميق إعادة بناء ذاكرته المجتمعية المسيَّسة منطقياً في بيئة المعنى المنهجي الدقيق فإن ذاته تتشظى إلى ذوات متعددة ومتوازِية ، ويبدأ الفردُ في التنقل بين هذه المستويات المتوازِية ، فيخرج من ذاته الأولى إلى الثانية ، وهكذا .

لكن المجتمع الأمريكي _ بحكم ضعف مستواه في مجال السياسة التي تؤول عنده إلى إجراء إعلامي هلامي _ يصنع واقعاً خيالياً مضطرباً في أحكامه . وكل ذلك في قوالب جاهزة مسبقاً أَرْسَتْها كثير من محطات الأخبار المشبوهة ، الموالِيةِ لرأس المال لا المصداقيةِ الإعلامية .

---

(١٣) إن الأنظمة ذات المستويات القمعية عبر كل مراحل التاريخ _ مثل الفاشية والنازية_تستند في تصوراتها الفلسفية إلى الخداع البصري والسمعي، فترى أجهزةَ إعلامها المسيَّسة في الإطارات النفعية الشخصانية_ مصلحة الذات الواحدية المتخندقة في أنانية أنساقها دون النظر إلى المجتمع المحيط _ تعمل على إلباس القاتل المجرِم قناع الحمل الوديع البرئ ، وتصوير الضحية وكأنها الآثمة التي تسعى لتدمير قيم الحضارة وإنجازات العالَم الحر ، وهذه الحرب الإعلامية لا تنطلي إلا على السُّذج والعوام الذين يفتقدون إلى مستوى ثقافي عالٍ يُمكِّنهم من تمييز الغث من السمين .

وفي ضوء الانتكاسة الكلية المتشظية في تدهور تطبيقات الوعي السياسي، ينبثق من ثنائيات التضاد الصارم إشكاليةُ التوليد الذاتي لعملية امتداد عسكرة الأساطير الفكرية . حيث إن المنظور الاجتماعي المتآكل يحال إلى أشكال عسكرية أكثر عنفاً ضد الذات ، والآخرِ الداخلي ، والآخرِ المقابِل . وفي زحمة فوضى العنف الأحادي يتحول المنطقُ الفكري المنضبط إلى عبء ثقيل على كاهل الوجود البشري ، وهذه نتيجة متوقَّعة لاختلال الألفاظ والمعاني في مجتمع يتآكل .

ومع تزايد حالة التكسر الفلسفي في أدبيات العسكر يصبح العقلُ المفكِّر للكيانات السياسية المتطرفة أيديولوجياً على الصعيدَيْن الاجتماعي والثقافي هو حجمَ الترسانة العسكرية . ويصبح مدى الإنجازات الإنسانية العظيمة هو مدى وصول الدبابة والمدفع . وهكذا يُختَطَف المجتمع في أَسر قبضة العسكر، ويُلغَى الحلم البشري في سبيل عسكرة الأنساق المجتمعية، والإفرازاتِ الفكرية .

لقد أصبح كوكبُ الأرض مكاناً خطراً جداً للعيش فيه بفعل الفرضيات المتوحشة[14] التي تُصنَع في مطابخ عسكرة الأنسنة العضوية للكيانات الفكرية

---

(١٤) إن فهم ملابسات تكوين الفرضيات المتوحشة في عوالم السياسة يتطلب تأسيساً فلسفياً أكثر تعرية لدرجات الأدلجة العسكرية من ناحية بنيتها الامتدادية الخشنة . فالتوحش ما هو إلا انعكاس عادي لتساقط القيم الفكرية الذاتية على مستوى التطبيق الداخلي والخارجي . وللأسف الشديد فإن هناك كياناتٍ سياسية في العالم ــ رغم قناع الديمقراطية ــ يقودها الوهم الأيديولوجي . وكما أن فلسفة التكريس السياسي السلبي هي نتاج ميثولوجي لانهيار إنسانية الإنسان ، فإن مركزية السقوط المدوِّي للمجتمعات الاستهلاكية الجدلية نتاجٌ انتكاسي لحالة غياب الحلم بمستقبل مشرق في ظل أزمة معنى الحاضر،واختفاءِ المستقبل تماماً في جغرافية الفشل في قيادة العالَم إلى بر الأمان . وفي هذا السياق ينبغي أن ندرس محورية الشرق كحاضنة للحضارات العالمية= =الكبرى . فكل

الشاملة . فكل إجراء عسكري قامع هو في الحقيقة إشكالية البؤر المركزية في عالَم غير مؤسَّس على قواعد ثابتة .

وفي وضع ضاغط على مستويات الحياة الإنسانية الكريمة يصبح المجتمعُ الكوكبي مقبرةً حقيقية للحلم، فيفقد الكائن الحي شرعية أحلام وجوده داخل سجونه التي ينسجها حوله ، ويُدخِل نفسَه فيها كنتيجة حتمية ميكانيكية لهذا الغبش المريع في الرؤية .

ومهما يكن من أمر ، فإن واحدية نظرية الغبش تتجزأ على شكل إرهاصات قامعة للذات الفكرية الحرة .

***

الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ ظهروا في الشرق ، والأنبياء لا يظهرون إلا في أماكن الطهارة والنقاء .

- ٧ -

بذور نهاية الحلم في أنويته الداخلية

في ظل انبثاق حركة سياسية لتفسير متطلبات الوجود البشري حسب أجندة الاحتلال القامع لمستويات الحرية المجتمعية العالمية نجد أن طبيعة الأنساق في بنية سياسات الهيمنة والتوسع قائمة على اجتياح منظومة الحلم البشري العمومي وإبادته.

ولم تكن حملات الإبادة والتطهير العِرقي عبر أطوار التاريخ إلا تياراً مؤدلَجاً ، لا يقبل القسمة على اثنين ، لأن مشروع الاحتلال شديد القطبية الجاذبة ، ويمتاز باستقطاب حاد للغاية .

فالإمبراطورياتُ التي تعاقبت على حكم كوكب الأرض تتأسس سياستها وفق منظور إدخال باقي الدول في فلك الولاء لها ، من أجل دعم المشاريع التفكيكية للمعارَضة بكل أطيافها ، وتكريسِ القبضة الحديدية النابعة من مصدرية استثمار المعاناة البشرية لتحقيق مكاسب مادية شخصية .

لكن الحضارات تختلف جيوسياسياً تبعاً لتعدد الأقطاب في العالم . فقديماً كانت إمبراطوريتا الروم والفُرس تتقاسمان النفوذ ضمن عالم ثنائي القطبية. وكذلك أمريكا والاتحاد السوفييتي . ومع مرور الزمن تكرست القطبية الواحدة وفق الشكل الأمريكي . ويمكننا تأريخ ظهور القطب الأمريكي الأوحد بعد انهيار الاتحاد السوفييتي (١٩٩١م). لكن القطبية الواحدة لها مخاطر كثيرة للغاية[15] .

---

(١٥) يمكننا تلخيص مخاطر القطبية الواحدية المتمثلة في أمريكا كالآتي :

أ) التجريد الموغل في تقديس الذات كسُلطة اعتبارية مطلقة تتقمص شرطي العالم وهذا جعل أمريكا في مرمى كل السهام وفق نقطة بؤرية مركزية واضحة للعيان ،= =وطبعاً

هذا يحد من قوتها لأن الظهور يقصم الظهورَ، ووجودك ككيان واضح وعلني يعمل جهاراً نهاراً يسلبك القدرة على التنظيم والتنفيذ داخل التطبيقات الاحتلالية ، لأن من يعمل في السر أقدر على تنفيذ أعماله. وما الوجود الأمريكي العلني إلا وجود هدف علني واضح لكل أولئك الذين يجيدون تصويب السهام ، ولديهم مشكلة مع أمريكا يريدون تصفيتها مرتين ، أي تصفية المشكلة عبر تصفية أمريكا . والخطأ الإستراتيجي الخطير الذي ارتكبته الإدارات الأمريكية المتعاقبة يتركز في عدم تقدير ردة الفعل . وأدق مثال على هذا المبدأ هو ما قامت به أمريكا من دعم المجاهدين في أفغانستان ضد الاتحاد السوفييتي ، وبعد أن هَزَمَ الشيوعيةَ المجاهدون ، توجَّهوا للقضاء على أمريكا ، واتخاذها كعدو في مرمى النيران ، وصار يُنظَر إليهم كإرهابيين . فجاءت تفجيرات السفارات الأمريكية في أنحاء متفرقة من العالَم ، وأحداث ٩/١١ ، والغرق في مستنقع العراق وأفغانستان دون تحقيق النصر . والذي ينظر إلى مسرح الأحداث العالمي يجد أن الخاسر هو أمريكا التي تدفع الثمن من أعصاب شعبها ، وأموالِ دافعي الضرائب، وأرواحِ أبنائها القتلى، واقتصادِها المحتضر ، وصورتها السيئة ، في حين أن تنظيم القاعدة ليس لديه ما يخسره لأنه ليس دولة ذات سيادة على أراضٍ وممتلكات وموارد قومية ، بل هو منظمة لا مركزية أينما هَبَطَتْ قامت بأداء ما تراه صحيحاً ، مع أن استهداف المدنيين غير شرعي . ومهما تلقَّت "القاعدة " من ضربات فهي قادرة على بناء ذاتها لأنها خلايا نائمة لا مركزية ، ولا تنتظر قدوم أوامر من قيادات التنظيم ، بل إن كل عضو قادرٌ على إصدار أوامر ورسم سياسات وتحالفات لوحده دون الرجوع إلى النواة الأساسية . والجدير بالذكر أن تنظيم القاعدة صار فكراً متشعباً عند بعض المنظمات . صار مشروعاً حياتياً خلط الحابل بالنابل، وهذا أخطر ما في الأمر. فليس هو منظمة تقصفها بعدة صواريخ من طائرة بلا طيار ، وتعود فرحاً بأنك قضيتَ عليها . فالأمر ليس بهذه البساطة. فالقاعدة جيش من الخلايا غير نظامي يعتمد على تمويل ضخم لا يمر بالطرق التقليدية ، ولا يمكن محاصرته لأنه لا يملك= =معسكرات محدَّدة تقصفها وترتاح منها ، كما لا يمكن قطع المساعدات من البنك الدولي عنه على

سبيل المثال، ولا يمكن وضع عقوبات من مجلس الأمن الدولي عليه. وهذه هي الصعوبة في الأمر لأن أمريكا تقاتِل شبحاً، تحارِب شيئاً كأنه بلا وجود حقيقي على أرض الواقع . وإنما تعرف بوجوده من خلال التفجيرات على مسرح الأحداث العالمية . كما أن تنظيم القاعدة استفاد_ مجاناً _ من حملة دعائية عالمية في كل وسائل الإعلام بشتى أشكالها ، فصار كالإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس . وأنا على ثقة أن تنظيم القاعدة قد أخذ أكثر من قَدْره بكثير ، لكن الذي ساهم في ترسيخ صورته كتنظيم عابر للقارات هو أحداث ١١/ ٩ التي كانت_ رغم الإدانة الشديدة لها _ حدثاً أسطورياً سينمائياً استعراضياً وضع ابن لادن ومنظمته في قلب كل بيت على سطح المعمورة. لكننا نقول إن تنظيم القاعدة خلط الحق بالباطل نتيجة التأويل المشوَّش للنصوص الدينية المقدَّسة . والواجب علاج أفكار "القاعدة" المتطرفة بالحجة والبرهان لا السجون والتعذيب ، لأن الفكر لا يمكن مواجهته إلا بالفكر، مع التشديد على حُرمة استهداف الأبرياء . ونحن لا نشكِّك في نوايا أتباع القاعدة ، ولكنهم ضلوا الطريقَ . وكما هو معلوم فالنية الصالحة لا تصلح العملَ الفاسد . كما أن الطريق إلى جهنم معبَّدة بكثير من النوايا الحسنة .

ب) نجاح تنظيم القاعدة في استقطاب أمريكا إلى أفغانستان لكي يقوم بقتالها على أرضه ، وبين مؤيديه . وقد استمعتُ إلى مقابلة تلفزيونية مع عبد الباري عطوان رئيس تحرير جريدة القدس العربي اللندنية ، وهو من الأشخاص الذين قابلوا ابن لادن وجهاً لوجه ، فذكر عطوان أن ابن لادن قال له إنه لا يستطيع مقاتلة أمريكا في الأراضي الأمريكية ، وبالتالي سيحاول سحبها إلى أفغانستان ليقاتلها على أرضه وبين أنصاره . وهذا يعكس أبعاد المصيدة التي نصبها ابن لادن لأمريكا عن طريق استقطابها إلى الفخ ، واستدراجها إلى أرضه التي يعرفها شبراً شبراً لكل يقاتلها بكل تركيز . =

= ج) تصدع الحلف الذي تقوده أمريكا تحت مسمى"مكافحة الإرهاب" لأن الدول الأوروبية الشريكة في هذا المشروع اكتشفت أنها تورطت مع أمريكا ، فتنظيم القاعدة صار له فروع في عدة بلدان يصول ويجول فيها . كما أن الملابسات المحيطة بهذه الحرب

وتبادلية الاستقطاب تُفهَم من خلال المنظور النسقي التفجيري لخلايا اللغة العسكرية الخشبية التي تحكم مسار العقلية البوليسية للسياسات الدولية . فالوجود العلني الظاهري للقطب الواحد جعل أعداءَ الحضارة الأمريكية يُركِّزون في تحديد الهدف المعادي (أمريكا) بدقة ، دون تشتيت قواهم تجاه عدة أقطاب مبعثرين هنا وهناك .

وكما قلنا فإن وجودها كقطب أوحد علني جعلها مركزاً لتلقي سهام الجهات المناوئة لها بشكل مكثَّف ، لأن السائل كلما قلَّت كميته ازداد تركيز العناصر فيه ، وبسبب انعدام وجود أقطاب على مسرح السياسة العالمية صار تركيز استهداف أمريكا عالياً للغاية . ومع ازدياد التشظي في بؤر الصراع العالم ، وتأججِ الأزمات الداخلية والخارجية ، سوف يعاد تشكيل كوكب الأرض على صورة كيانات متعددة الأقطاب . وفي الجهة الأخرى لمبدأ القطبية نجد أن الجهات المضادة للاتجاه الأمريكي صارت هي الأخرى أقطاباً لها وجود فاعل، فتنظيم القاعدة صار _ بفضل معاداته لأمريكا_ قطباً عالمياً يتردد اسمه في كل العالَم بدون استثناء ،

رسَّخت لدى أذهان الكثيرين أنها حرب على الإسلام والمسلمين بالمقام الأول . فقد وجدنا الكثيرين من الأبرياء يُقتَلون على يد القوات الأمريكية بذريعة أنهم إرهابيون، وهذا زاد الكراهية لأمريكا في دول عديدة شرقية وغربية . كما أن هذه الحرب تم استغلالها للتضييق على الأقليات المسلمة في الغرب ، والتجسس عليهم ، ومنعهم من حقوقهم وممارسة شعائرهم الدينية ، والتطاول على مقدَّساتهم مع أنهم يعيشون في الغرب دون أية علاقة بتنظيم القاعدة . أضف إلى هذا أن صورة أمريكا في العالَم سيئة للغاية ، فهذه البلاد التي كانت تُقدِّم نفسها على أنها واحة الأمن والسلام والحرية وحقوق الإنسان نجدها قد أدارت ظهرها لهذه القيم ، فمعسكر غوانتانامو ضم الكثيرين من الأبرياء بلا محاكمة ، والمتهم بريء حتى تثبت إدانته .

وكأنه قد حلَّ مكان الاتحاد السوفييتي . وبالتالي فإننا نخلص إلى نظرية تبادل القطبية وأبعادها النسقية وغير النسقية في خضم التأصيل الدقيق لخرائط السياسة العالمية المستندة إلى الاندفاع العسكري العنيف. وكلما تنافرت أقطاب الانتكاسة الجزئية في المشهد العسكري ، تجمَّعت تشكيلات أكثر حدة في التعامل مع هالة المتواليات المعرفية الدينامية ، إذ إن غياب البؤر الممزوجة بالمعنى الإنساني الحضاري يجعل من التحولات الهامشية تشكيلاً بصرياً عنيفاً يمتزج بانهيار الزمن الإمبراطوري العالمي ، وظهور أطوار زمنية جديدة تعيد تشكيلَ فكرة القطبية ، وتُنتِج نظاماً متوازناً بعض الشيء بين أقطاب متعددة (الصين، روسيا، الهند، البرازيل، النمور الآسيوية، أمريكا ، أوروبا) .

وفي ظل التعقيدات السياسية ستظهر نظريات جديدة تساهم في فهم الحراك الإنساني بكل تشعباته : السياسية والاجتماعية والاقتصادية . والأمرُ كلما ضاق اتَّسع، وهذا يُولِّد نظرياتٍ جديدة في المنهج السياسي.

ومن هنا تنبثق نظرية جديدة يمكن تسميتها " المنسي الدال على التمركز" [16]، وهي منهاج يتضمن ماهية المراكز والأطراف .

---

(١٦) هذه النظرية تتلخص في أنها تركز على العناصر المنسية العميقة (الأطراف) في الأنساق الفكرية للكتل المعرفية بغية الوصول إلى النقطة المركزية الأولية التي هي بمثابة النبع الأصلي (المركز) . وهذه النظرية تعتمد على قراءة التاريخ عبر تسليط الضوء على العناصر التي تم إقصاؤها في المسار التاريخي ، وترتيبِ التطبيقات وفق مبدأ منطقية أصل الأنوية. فنظرية " المنسي الدال على التمركز" تعتمد في وجودها النظري التأصيلي على عناصر فلسفية عميقة مُفَصَّلة نوجزها على النحو التالي : =

= أ) التركيز على فكرة الإقصاء لتوظيفها من أجل الكشف عن العناصر المنبوذة _ عمداً _ والجهاتِ الواقفة وراء هذه العملية ، وهذا يعكس لنا عِلَّةَ النفي والإقصاء ،

ومدى الأخطار المحدقة بالسياق الفكري ، والتي استلزمت إبعاداً من التكوين العمومي للمعنى. فأية جهة إنما تقوم بنفي العناصر وإقصائها إذا شعرت أن العناصر تُشكِّل خطراً عليها . وفي خضم ملاحقتنا لهذه العناصر المنسية _ عن سبق الإصرار والترصد _ نستطيع إقامة علاقات كاشفة تُوضِّح مدى خطر العناصر ، وأبعادها المؤثرة على مسار القوى الفاعلة التي أَقْصَتْها لتبعدها عن طريقها . ومن هنا تتكشف الخيوط الأولى التي تقود إلى واحدية المركز (نبع النواة الأولى). أما تطبيقات هذه النظرية في الأنطقة السياسية فتتركز على دراسة المسارات التي أَبْعَدَتْها الإمبراطورياتُ من طريقها، وقامت بتهميشها بشكل منهجي مبرمَج ، مما يدفع باتجاه فهم طريقة التفكير السياسي الإقصائي ، ونقاطِ القوة ، وبؤرِ الضعف ، وطرقِ التعامل مع العناصر المناوئة للاتجاه العام . وهذا يؤدي إلى فهم فلسفة بناء التعاملات الإنسانية التي تم تشييدها وفق تصورات الأدلجة الأحادية العابثة، وبالتالي معرفة الجهات الواقفة وراء عمليات الإقصاء ومدى قوتها ، والعلاقات المستترة الرابطة بين الجهات المخطِّطة والجهاتِ المنفِّذة .

ب) التراجع الواضح في مسارات رمزية النواة الحاملة لجيناتِ الفكر الموجَّه ،حيث إن تغييب الامتداد الرمزي للسياسات جعل الأداء الإمبراطوري فاقداً للغطاء الذي يُقَدَّم على أنه شرعي ، ويتم تصويره كنظام متواليات من هندسة هوية الشرعية المنطقية .

ج) تكريس الخديعة في أداء فلسفة السياسة ، حيث التبادلية العبثية بين المركز والأطراف، لكن السؤال الإشكالي الذي يطرح نفسه بقسوة : ما الدافع لقيام النظام الأيديولوجي بإجراء تبادلات شرسة بين المركز والأطراف ؟. الجواب : إن النظام الرأسمالي نظام متغير بصورة كبيرة جداً ، يشتمل على متواليات عنيفة جداً من الحراك الاجتماعي الطبقي، وانتقالِ الأموال ، والتحولاتِ الاقتصادية المسيَّسة، والتغيراتِ الجيوسياسية في التركيبة المعرفية ذات التطبيقات على أرض الواقع . فيدخل المركز= =والأطراف في دوامة تبادلية ، حيث يتم تبادل الأدوار داخل أطوار محددة وفق متغيرات السوق والعوامل المالية. وفي ظل الأزمة المالية الخانقة التي ضربت العالَم عموماً، وأمريكا خصوصاً في الربع

الرابع من عام ٢٠٠٨م جرى تغيير جذري بالنسبة لتبادلية المركز والأطراف ، فأمريكا المركز ستصير طرفاً من الأطراف ، ويدخل الكوكب في عالَم متغير الأقطاب، خصوصاً مع الصعود القوي للصين والهند والبرازيل، واستعادة روسيا نبرة التمرد والمواجهة مع الغرب (حلف شمال الأطلسي) خاصةً أن الترسانة العسكرية الروسية التي ورثت الاتحادَ السوفييتي ما زالت مصدر خطر وقلق بالغَيْن للغرب كاملاً. وستحدث تبادلية في المركز والأطراف لتنشأ حالة جديدة من استقطاب المركزيات ، وصيرورة الأطراف إلى مراكز ضمن منظومة المراكز مع حِراك اجتماعي شامل لعناصر السياسة والاقتصاد والقوة العسكرية . وحريٌّ بنا أن ننتبه إلى أن النظام الرأسمالي ــ رغم انفتاحه الكبير واعتماده على اقتصادِ السوق المتغير في كل لحظة ــ هو نظام مغلق إذا نظرتَ له من الجانب الآخر، لأن الرأسمالية مع دوران محرِّكاتها وأفلاكها بشكل سريع للغاية مكرِّساً عصر السرعة الإلكتروني العنيف فإنها تقترب شيئاً فشيئاً من النواة المركزية بفعل الفقدان الهائل لطاقتها الحركية، وهذا سيجرح النظامَ الرأسمالي بشكل شديد، فيبدأ النزيف المجتمعي في التداعي، وهذا ما حصل في أمريكا في أواخر عام ٢٠٠٨م . حيث ارتفعت نسبة البطالة بصورة كارثية ، وتلاشت مئات آلاف الوظائف ، وازداد الفقر ، وازداد عدد المعتمدين على المساعدات الحكومية ، وبدأ النسيج الاجتماعي يتفسخ. وهذا ليس غريباً لأن النظام الرأسمالي في جانبه الخفي نظامٌ مغلق تماماً لأنه يعمل على تكديس الثروة في يد طبقة محددة من المجتمع الذين يملكون أساليبهم الخاصة في استغلال نفوذهم لجمع أكبر قَدْر ممكن من المال بالطرق المشروعة وغير المشروعة ، مما يحرم باقي طبقات المجتمع من حقوقها. ومع تجمع الثروة في يد طبقة صغيرة متنفذة في المجتمع دون وصول الامتيازات والمكاسب إلى العامة سيحدث شرخٌ خطير في التركيبة الاجتماعية للطبقات ، فيولد= =مجتمع الكراهية والحقد والشطط الطبقي ،حيث التفاوت العنيف بين المجتمعات الداخلية يصير واضحاً ومثيراً للضغائن . فمثلاً هناك ولايات أمريكية غنية تعتمد على الصناعات المتقدمة تكنولوجياً وهي العمود الفقري لاقتصاد أمريكا ، وهناك ولايات فقيرة ما زالت تزرع القطن وبعض المحاصيل، وذات

لكن الإشكالية الحقيقية في التركيبة السوسيولوجية المجتمعية في أمريكا ، هي عدم وصول الفرد الأمريكي إلى الوعي الكامل لفحص أداء حكومته وسياساتها العاجزة . فالأزمات على جميع الأصعدة تتوالى على أمريكا منذرةً بأخطار جسيمة محدقة ، ليكتشف المجتمعُ الأمريكي أنه هو المحاصَر لا المحاصِر .

وهذه الملابسات الخطيرة لعملية التراجع القاسي في مستويات القوة في الداخل الأمريكي انعكست سلباً على سياسة الهيمنة الخارجية. وصارت الإدارات الأمريكية المتعاقبة مجرد حكومات تصريف أعمال ، تعمل على ترحيل مشاكلها إلى القادم بعدها ، مثل الطبيب العاجز عن معالجة مريضه فيخبره بأن دوامه انتهى، وسيأتي طبيبٌ آخر بعده لكي يعالجه ، وعندما يأتي الطبيب الآخر يعيد سيناريو

إنتاجات زراعية متواضعة. وهذا سيصنع نظاماً إقطاعياً طبقياً عنيفاً قد يقود إلى استعادة ذكريات الحرب بين الشمال والجنوب التي أكلت اليابسَ والأخضر. وقد تنشأ حروب مستقبلية بين الولايات ضمن الصراع على المصالح والامتيازات والمواد الخام . ولعبة تبادل الكراسي بين المركز (المراكز) والأطراف إشكالية عظمى، ولعبة مميتة ستفضي مع مرور الوقت إلى حالة من الغبش الأحادي الفاقد للسيادة على مكوِّنات أنساقه، خصوصاً أنساقه الخارجية ذات الصبغة الغارقة في عقلية الاحتلال وأماكنِ النفوذ والثروة والمواد الخام والأسواق ، التي كانت تنتهجها الدول الاستعمارية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين. لكن الحقيقة أن أمريكا ذات خبرة متواضعة في الاحتلال . وهي بالطبع في هذا المجال أقل ذكاءً بكثير من بريطانيا وفرنسا اللتين تمتلكان تاريخاً حافلاً في الاحتلال . ومشكلة أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية أنها تعرف كيف تدخل حرباً ، لكنها لا تعرف كيف تخرج منها، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على لحظة تهور مندفعة للسيطرة على النفط والموارد والمواقع الجغرافية الحساسة دون التفكير في ثمن هذه المغامرات .

الخديعة، لكن الوقت يداهم المريض ، ويصبح الانتظارُ مسماراً في نعش المريض الذي يدفع الثمنَ غالياً من أعصابه وعمره .

وسياسة ترحيل الملفات بين الإدارات المتعاقبة هي سياسة متبعة لأن التصدعات في بنية التركيبة الجيوسياسية في أنظمة العولمة (الأمركة) سرعان ما تطفو على السطح حاملةً معها انكسار المجتمع في مجالات دينامية التفتيت الاجتماعي لانعدام شرعية الوجود المتجانس . فأمريكا أشبه ما تكون بسلة تحوي كل الأصنافِ دون وجود رابط حيوي وحقيقي بين تلك الأصناف .

وبالطبع فإن مصطلح " الأُمَّة الأمريكية " الذي يُسمَع هنا وهناك ليس بأكثر من وهم طبقي تركيبي مكشوف للجميع ، لكنه يُستخدَم كدعاية براقة تحاول إبراز وجه مشرق لحالة افتراضية خيالية ، من أجل إظهار هذه الإمبراطورية التجميعية وكأنها مجتمع متجانس متراص ومتماسك في وجه التحديات، وهذه دعاية إعلامية لا أكثر ، تقوم بتصوير الشروخ في جذور بنية التكوين المجتمعي الأمريكي وكأنها مجتمع التعدد والتنوع المصهور في بوتقة واحدة متماسكة أمام الأحداث الجسام.

ومن هنا نكتشف أن تعريف " الأُمَّة" لا ينطبق على المجتمع الأمريكي الذي هو في واقع الأمر مجموعة مجتمعات وأمم موجودة لتحقيق مصلحة مادية باعتبار أن أمريكا يوجد فيها فرص عمل ، أو كان يوجد فيها فرص عمل وأحلام وثروة ومجد وتقدم . فبات الأمرُ شبيهاً بمجموعة من البحارة الذين ركبوا سفينةً لا علاقة لهم بها من قريب أو بعيد ، فقط من أجل الحصول على مكاسب مادية بحتة ، وحينما تبدأ السفينة في الغرق فإن كل بحار سيقفز منها وينجو بنفسه بحثاً عن مشروع استثماري آخر ، ولن يفكِّر أحد ما في إنقاذها لأنها لا تخصهم نهائياً . وهذا هو الأمرُ المضحك المبكي .

وأمريكا هي السفينة التي جمعت هؤلاء الأضداد فقط لأنها مشروع استثماري مربح ، أو بالأحرى كان مربحاً مادياً فقيراً روحياً ، ومع ظهور بدايات التصدع ، في

هذه السفينة سوف يتركونها تغرق وينجو كل واحد بنفسه ، وهذا بدأ يحصل الآن من قبل كثير من الفئات .

إن عمر أمريكا كقطب أوحد أقل من عشرين سنة ، وقد بدأت تترنح بشدة جراء تكالب الأزمات عليها ، كالأزمة المالية العنيفة(الربع الرابع ٢٠٠٨م)، والهزائم العسكرية في العراق وأفغانستان في مطلع القرن الحادي والعشرين ، والمصاعب الاقتصادية في الداخل من حيث انهيارات الصناعات ، وفقدان فرص العمل ، وازدياد معدلات البطالة ، وانتشار الجريمة ، وتفكك النسيج الاجتماعي .

وهذا يدحض ما ذهب إليه بعض المفكِّرين المبتدئين من أن أمريكا هي الخاتمة للتاريخ ، وأنها الحضارة السائدة حتى نهاية العالَم . لكن العصر الإلكتروني السريع جداً لا يحمل معه علامات التقدم السريع ، والظهور الإمبراطوري الصاعق، وسرعة نقل المعلومات ، والتغير في نقل مراكز الثروات والأموال فحسب . فهو يحمل أيضاً السرعة في الانهيار والسقوط، وفقدان مراكز الثقل ، وصعود دول وسقوط دول .

فالعالَم أضحى كالدوامة في سرعة دورانها وجذبها وتدميرها. فأمريكا بعد أقل من عشرين سنة _ كقطب أوحد_ ها هي تعاني صعوباتٍ جمة تؤثر على مركزها كقطب أوحد، حيث إن سرعة التغيرات في النطاق السياسي يشتمل على اتجاهاتٍ تدميرية عنيفة من ناحية شدة التأثيرات المناوئة للإمبراطورية الأمريكية ، حيث تتزايد عوامل الحت والتعرية التي تقف سداً منيعاً أمام توغل هذه الإمبراطورية .

والعناصر المكوِّنة لتعريف سرعة التغيرات في النطاق السياسي تتمحور حول نقطتين رئيسيتين :

أ) جدلية المركز والأطراف تختلط بشدة في مركز تكون الدوامة الحضارية التي تعمل على تجريد مستوياتِ المعرفة الإنسانية من امتدادها الطبيعي ، والحيلولة دون نمو إمبراطوري متواصل في الصعود والسيطرة والهيمنة . والانكسار المعنوي

في صعود الحضارة المادي يتركز في غياب الطاقة اللازمة لإمداد البنية بالتأسيس الفكري الخلاق، وهذا يدفع باتجاه تكوينات أكثر حدة وشراسة في التعامل مع هذه الانعطافة التاريخية التي من شأنها تجريد أمريكا من عرش القطبية الوحيدة ، وجعلها قطباً ضمن عدة أقطاب .

ب) قيام الإدارات الأمريكية بمغامرات غير محسوبة على الصعيد العسكري والمالي أوجدت بنيةً تحتية لانتكاسة المتواليات التكاثرية للحلم الإمبراطوري التوسعي الاحتلالي بفعل غياب الغطاء الواعي للقدرة الحالمة على الديمومة.

فهذه الانطلاقة العنيفة في الصعود والتمدد لم يرافقها غطاء أخلاقي مشتمل على العناصر الروحية والمادية من شأنه حمايتها من التفسخ . فحصل المحظور ، مما أدَّى إلى تبعثر الجهود وتفرقها على أكثر من صعيد، ولا يمكن لأمريكا أن تفتح أكثر من جبهة للقتال ، فقواتها العسكرية منهكة للغاية ، ومتفرقة في قواعد عسكرية مشتَّتة في أصقاع الأرض . كما أن زيادة عدد الطباخين الملتفين حول نفس القِدْر سيؤدي حتماً إلى فساد الطعام ، وهذا ما يحصل الآن في العالَم .

فلم تكن أمريكا في يوم من الأيام إلا بيئةً اصطناعية ذات صبغة استثمارية ميكانيكية ، وتعاني من غياب جذور حضارية حقيقية تشتمل على الروح والمادة ، وفقدانِ الهوية المتجانسة المتحدة في سياق ثقافي واحد ، وتآكلِ البنية الاجتماعية ، وضعفِ حركة الوحدة الشعبية .

لذلك فإن التماسك المعنوي المعرفي غائب بالكلية عن أمريكا التي نشأت كبيت زجاجي اصطناعي موجود لأداء أهداف مادية بحتة، وإذا زالت هذه الأهداف المادية

ذهب المستثمِرون إلى بيئة استثمارية مربحة أخرى بحثاً عن المال[17] .

---

(١٧) من العبارات السائدة أن رأس المال جبان. وهذه العبارة تعني أن المستثمِر ــ في=

وفي ظل تكاثر الأزمات الأمريكية وتحدياتِ الهوية ، فإن أعداء أمريكا _ وعلى رأسهم تنظيم القاعدة _ سيعملون على إسقاط أمريكا بسرعة ، وتفعيلِ الخلايا النائمة لضرب الأهداف المنتقاة _ المدنية والعسكرية ، وتفتيتِ أذرع الإدارة الإمبراطورية عبر تكريس الحرب الاستباقية[18] .

=هذا العصر المادي الانعزالي على مستوى العاطفة الشعورية _ يهدف إلى الربح قبل كل شيء ، فإذا شعر بأي خطر يهدد مسار أرباحه فإنه سرعان ما يبحث عن مكان آخر فيرحل إليه خوفاً من خسارة أمواله ، لأن شدة الحرص على الشيء تُولِّد في الذوات البشرية وسواساً يتمحور حول ذلك الشيء الذي يُعَضُّ عليه بالأسنان والأظافر . فيصبح الإنسان عبداً في مواجهة المال الذي صار سيداً . وهذه حالة فريدة في التكوينات النسقية المعرفية ، لأنها تعني أن السيد يصنع بيديه سيداً عليه، فيصبح الأول عبداً والثاني سيداً. وإذا حصل خطر على الأداء المالي الأمريكي فإن هروب رؤوس الأموال من أمريكا سيصبح سمة العصر الحالي ، وهذا ما سيضاعف شراسة العد التنازلي للإمبراطورية الأمريكية . ونحن لا نعني بهذا السقوط أن تصير أمريكا من دول العالَم الثالث، بل هي دولة قوية جبارة، لكنها فقدت ذراعَيْها في حادث سير،فما زالت تأمر وتنهى، لكنها أُصيبت بمرض متجذر، وهذا ما سيجعل الدول الصاعدة تؤسس عالَماً متعدد الأقطاب، لا عالَم التابع والمتبوع .

(١٨) إن تنظيم القاعدة يؤمن أن الحوار مع أمريكا مضيعة للوقت، لاعتقاده أن أمريكا خصم يتقمص دور القاضي ، ويحمل فكرةً مسبقة ثابتة يتخذها مُسلَّمة إستراتيجية لحماية أمنه الوطني غير قابلة للتغيير . لذا تقوم فلسفة "القاعدة" على تجذير الحرب الاستباقية عبر التركيز على صيغ الأهداف المختبئة وراء التحركات العسكرية الأمريكية، ومحاولة التصدي لها في عقر دارها، قبل أن تتشظى في أنحاء العالَم ، فخير وسيلة للدفاع الهجوم ، وخير وسيلة للتصدي للحرب الاستباقية الأمريكية هو إشغال أمريكا بحرب استباقية مضادة تكون الفعلَ لا رد الفعل ، وعندها ستتخبط إستراتيجية= =أمريكا

- ٨ -

أزمة الوعي في زحمة عسكرة المعنى

إن الإشكالية الكبرى في الأداء السياسي الأمريكي هي غياب دلالات الوعي عن محيط الأداء الفكري الإمبراطوري . مما أدى إلى إدخال أمريكا في حروب متعددة الأشكال دون أن تفكر في كيفية الخروج منها. وهذا يعكس سوء التخطيط المعتمد على الارتجال والاستعجال .

والغريب أن دولة كأمريكا تملك أقوى جامعات العالَم، وأقوى مراكز البحوث والإحصاءات ، وأعظم علماء الدنيا ، لم تقدر على ضبط حساباتها على الأصعدة : الاقتصادية والعسكرية والاجتماعية . وهذا يعكس حجم المأزق الوجودي .

وربما ظنَّت أمريكا أنها بغزو العراق وأفغانستان توجِّه رسالةً تحذيرية لباقي الدول أن ارتدعوا وإلا سيؤول مصيركم مثل العراق وأفغانستان . والذي حدث هو عكس هذا تماماً لأن أمريكا بعد غزوها للعراق وأفغانستان لم تعد قادرةً على أي عمل عسكري آخر ، على الأقل حتى تبنيَ قواتها العسكرية من جديد ، وتعيد حساباتها ، وهذا يستغرق وقتاً طويلاً .

فانكسارُ أمريكا في العراق وأفغانستان هو انكسار حقيقي، وليس حرباً إعلامياً يشنها أعداء أمريكا . وعدم قدرتها على الحسم العسكري صار العنوان الرئيسي في

المخطط لها مسبقاً في مواجهة عناصر المفاجأة والفاعلية الاستباقية، مما يحشر أمريكا في زاوية رد الفعل لا الفعل، وإذا وصلت الإمبراطورية الأمريكية إلى هذا الأداء المرحلي فستكون رقماً سهل التجاوز ، وورقةً متآكلة في مهب الريح ، ريحِ المقاومة والتغيير والمباغتة ونقل المعركة في عقر ديار التخطيط الإستراتيجي لخطط الاحتلال الأمريكي . وهذه هي الخطة الإستراتيجية الثابتة لتنظيم القاعدة .

كثير من الدوائر، حتى لو لم يتم الإعلان عن ذلك من أجل الحفاظ على ماء وجهها.

فأمريكا إن بقيت على الأرض سوف تظل تنزف حتى الموتِ ، وإن انسحبت فهذه خسارة لأنها لم تحقق الأهدافَ المرجوة من الحرب، فتكون قد دفعت ثمناً باهظاً من دماء أبنائها ، وأموالاً طائلةً من دافعي الضرائب دون أي مردود . فتكون بذلك كمن يرمي ممتلكاته في البحر ، ثم يعود إلى بيته رافعاً راية النصر . ففي كلا الحالتين أمريكا في مأزق ، وتعاني من أزمة حقيقية تتعلق بأهدافها وهيبتها ومكانتها وقوتها .

وبسبب التورط الحقيقي لأمريكا وعدم قدرتها على شن حروب أخرى لأن قواتها العسكرية منهكة[19]، تجرأت كثير من الدول على تحدي أمريكا جهاراً نهاراً،

---

(١٩) نحن لا نقلِّل من قوة أمريكا العسكرية ، ولا نريد أن نصورها كدولة فقيرة لا تملك معدات عسكرية ، إلا أننا نقول إن أمريكا بعثرت قوتها في أرجاء العالَم ، وتورَّطت في حروب غير محسوبة ، كما أنها خاضت حروباً غير تقليدية ، ففي العراق كان الذين يقاومون الاحتلالَ الأمريكي ليسوا " الدولة العراقية " ، وإنما حركات تخوض حرباً غير تقليدية ، والأمر كذلك في أفغانستان، وهذا بحد ذاته صعوبة بالغة ، لأن الجيش الأمريكي جيش نظامي مدعوم بسلاح جوي مُدمِّر، ينسف المرافقَ الحيوية لأية دولة من أجل تركيعها ، والضغط عليها لتستسلم . لكن الأمر في العراق وأفغانستان كان مختلفاً تماماً . فلا توجد دولة _ بمفهوم الكيان السياسي _ تقاوِم القواتِ الأمريكية. وهذا ينقل المشهد إلى مشاهد الحروب غير التقليدية ، وحروب العصابات والشوارع والكر والفر،خصوصاً أن المعارك كانت تجري في بيئة قاسية للغاية من حيث شدة الحرارة أو وعورة التضاريس . وأمريكا غير معتادة على هذا الأنظمة الحربية. فبدت وكأنها تقاتل شبحاً يظهر هنا ويختفي هناك . كما أن هذه النوعية من الحروب تشتمل على اشتباكات مسلحة بين الطرفين وجهاً لوجه ضمن منظومة الاحتدام والاشتباك ، وهذا يُحيِّد سلاحَ

ولستُ أعني الدول الكبرى كروسيا والصين . فهاتان الدولتان لهما ثقل عالمي يجبر الغربَ على احترامهما ، وليس مفاجئاً أن يعارضا . ولكني أقصد الدول الصغيرة نسبياً (بالنسبة لحجم الثقل على المسرح الدولي) كإيران ، سوريا ، فنزويلا ، كوريا الشمالية، والمنظمات مثل حماس ، و"حزب الله" وغيرها .

وفلسفة التشتت وتفريق القوى من الأخطاء الكبرى التي ارتكبتها الإدارات الأمريكية المتعاقبة ظناً منها أن نشر القواعد العسكرية في العالَم سيضمن تواجداً أمريكياً أمنياً في كل بقعة ، وبالتالي هذا يضمن سلامة أمريكا وعدم تعرضها لسوء.

وهذه الفلسفة غير المنطقية مبنية في بعض أجزائها على أرضية الحرب الاستباقية، لكن الإشكالية الحقيقية في التعامل الجيوسياسي أن أمريكا تخوض حرباً غير تقليدية، فليست حربها ضد جيش نظامي مستند إلى نظام سياسي متواجد في كيان محدود على شكل دولة . وهذا ما لا تدركه أمريكا ، أو تدركه لكنها تُكابِر لكي تبدوَ في صورة القائد المنتصر الواثق من نفسه في كل الأوقات دون الحاجة إلى معرفة العدو، وأسلوبه ، وحجم قوته . وهذا سبَّب تراخياً في الأداء الاستخباراتي الأمريكي عبر طائفة من التقارير غير الدقيقة التي انعكست سلباً على صورة أمريكا، وقاد ذلك إلى أحداث ٩/١١ .

فلأول مرة في التاريخ تتلقى أمريكا ضربةً في عقر دارها،وهي غير معتادة على ذلك. فكل الحروب التي خاضتها، وكل الضربات التي تعرضت لها ، كانت خارج

الجوي تماماً فيصبح بلا فائدة ، لأنه لا يريد أن يقصف أهدافاً مخلوطة فيقتل جنوداً أمريكيين مشتبكين مع المقاوَمة . ومكمن الخطر في هذه الحرب عدم وجود أهداف ثابتة ليتم قصفها. فمثلاً لا يوجد قصر جمهوري للملا محمد عمر، ولا توجد وزارة داخلية للمقاومة العراقية . كما أن مصادر تمويل المقاومة غير معلومة ، فالأمر أشبه بالوقوف في غرفة معتمة لا ترى شيئاً ، وتتوقع ضربةً تأتيك في أي وقت دون معرفة مصدرها .

حدودها . فالموقع الإستراتيجي لأمريكا جعلها محصنةً جداً ، فهي أشبه ما تكون بجزيرة في وسط المحيط . فلم تتوقع أن يتم نقل المعركة إليها في قلبها النابض ، وهذا يكشف لنا أن المأزق الأمريكي الحقيقي يأتي من داخلها عبر أزمات خانقة تنبع من ذاتها تعصف بها .

ومن هنا يتضح لنا أن أحداث ٩/١١ أَدخلت العالَمَ في حروب من نوع خاص بلا أهداف محددة ، بلا كيانات سياسية على شكل دول ، بلا ميزانيات مكشوفة للحرب . لذلك فإن سمة القرن الحادي والعشرين ستكون حروباً أمريكية ضد المجهول ، وهذا ينهش في الجسد الأمريكي . وأعداء أمريكا يعملون في الظلام دون وجود كيان سياسي أو جيش نظامي، وهنا تكمن نقطة قوتهم، لأن العامل في الظلام أقدر على إنجاز عمله ، فالظهور يقصم الظهورَ . وهناك نظرية يستعملها أعداء أمريكا في مواطن محددة : " لا تُظهر قوتك إلا حينما تكتمل قوتك " .

يقول الدكتور أحمد زويل[20] في كتابه عصر العلم (ص ٢٢٥) : ((وقد جاءت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ لتقود إلى المزيد من اللانظام . فقد اهتزت الولايات المتحدة لما جرى ، اهتزت الحكومة كما اهتز الفرد الأمريكي نفسه ، ولم تكن الهزة لشدة وفداحة ما حدث فقط بل كانت _ وبالأساس _ لأن الشعب الأمريكي لم يشهد حرباً حديثة داخل أرضه، فالولايات المتحدة أشبه بجزيرة تقع بين محيطين ، وقد خاضت كل حروبها خارج أراضيها ، في فيتنام والعراق والبلقان وأفغانستان ، وفي عملياتها العسكرية المحدودة كالتي جرت في ليبيا والصومال . لقد اهتز الشعب الأمريكي من جراء أحداث ١١سبتمبر التي أطاحت بإحساسه بالأمن، ومن أجل ذلك أعطى الناخب الأمريكي صوته مرة ثانية للرئيس بوش تأكيداً

---

(٢٠) عالم كيمياء مصري أمريكي شهير (وُلد عام ١٩٤٦م) ، حصل على جائزة نوبل في الكيمياء لعام ١٩٩٩م عن أبحاثه الثورية في مجال الفمتو كيمياء .

لاستمرار إحساسه بالقلق ورغبته في الشعور بالأمن ، ولو كان على حساب أمن الآخرين)) اهـ .

ومن خلال الاتجاهات المبنية على دراسة المشروع الأمريكي نستطيع استشراف الأسس العامة لعسكرة السياسة في الأطر التطبيقية، حيث إن أهم أساس في هذه الصيغ الفكرية هو لعبة التعميم المتعمد ، حيث يتم صبغ كل المخالفين للسياسة الأمريكية بالإرهاب دون تمييز ، وذلك وفق فلسفة " خير وسيلة للدفاع الهجوم"، وهذا يؤدي إلى إحداث حالة من اللامنطق عبر تفعيل التهم دون أدلة . والمتهم بريء حتى تثبت إدانته. وقد تبدو هذه الشعارات ذات تطبيقات في الشارع العادي للمواطن البسيط ذي التعليم المتدني ، إلا أن بعض السياسات قائمة عليها تماماً ، وتطبقها بكل حرفية .

وهكذا نكتشف أن قوانين الحرب قد تغيرت بخروجها من الإطار التقليدي الرسمي المعتاد إلى الإطار غير التقليدي[21] . ومن هنا تتكشف متواليات التعرية

---

(٢١) هذه الفكرة تشبه علم الفيزياء الخصوصي الذي وضعه آينشتاين . فقبل آينشتاين كانت الفيزياء تقليدية تسير وفق أفكار نيوتن لا تحيد عنها ، لكن بظهور آينشتاين استطاع القفز إلى فيزياء جديدة غير تقليدية لها عوالمها الخاصة بها ، ومن هنا استطاع أن يثبت اسمَه في صفحات التاريخ ، ويتفوق على باقي العلماء دون أن يقدروا على التفوق عليه لأنه حطَّم القوانينَ المعتادة التقليدية التي كان يتسلح بها العلماء . وهذا بالضبط ما يحصل في الحرب غير التقليدية التي أسَّسها أعداء أمريكا في الشرق والغرب. فمثلاً وظيفة الطائرات الأمريكية أن تقصف أهدافاً محددة (حرب تقليدية) ، فمع اختفاء الأهداف (حرب غير تقليدية) غابت فاعلية الطائرات . ووظيفة طائرات التجسس والأقمار الصناعية وأجهزة التنصت أن تلتقط أي تذبذب ، أو تلتقط أي إشارات من جهاز معدني لتقبض على الهدف (حرب تقليدية) ، لكن زعماء تنظيم القاعدة وحركة طالبان لا يضعون في ثيابهم أجزاء معدنية، ولا يستخدمون وسائل الاتصالات التقليدية خوفاً من

المستدامة في الأداء الفكري العالمي ، وتظهر صعوبة أنساق حروب القرن الحادي والعشرين . فهذه الحروب مفتوحة على جميع الأصعدة ، ولا يمكن توقع طبيعة حركتها .

وفي أطوار بناء القوالب التاريخية زمنياً ومكانياً ، والقيام بعمليات الإفراغ والإحلال [22] ،تتكشف مصاعب جمة من أبرزها :

اكتشاف أمرهم (حرب غير تقليدية) ، وبالتالي غابت فاعلية الأجهزة الأمريكية المتقدمة . وهكذا نجد أن " الصندل" الذي يضعه المقاتِلون في أرجلهم قد تفوق على أكثر وسائل الاتصالات تقدماً ، لأن الصندل المصنوع من الخشب أو مواد بدائية أخرى لا يمكن التقاط أي إشارة تصدر منه، ولا يمكن التجسس عليه لأنه من مادة لا ترسل ولا تستقبل. وهذه هي نقطة قوة الحرب غير التقليدية. وقد قال أحد الشعراء إن المعركة قادمة بين العشب والأدمغة الإلكترونية ، وهذا يعكس المنعطف الحساس في الانتقالة النوعية للحروب غير التقليدية التي ستكون بصمةً مؤثرة= =في القرن الحادي والعشرين . فأمريكا متقدمة تكنولوجياً ولا يمكن مواجهتها تكنولوجياً لأنها هي المتفوقة . فلا ينفع معها فكرة تكسير العظام لأنها القوة الضاربة في هذا السياق ، ولكن أعداءها يواجهونها بالأساليب غير التقليدية ، وهذه نقطة ضعفها . فالطائرة العسكرية لا تُهزَم إلا بالطائرة الورقية، والبريد الإلكتروني لا يتفوق عليه إلا الحمام الزاجل، ولكن حينما توضع الأشياء في نصابها الصحيح ، والسياقِ الدقيق لمجريات الحرب ضمن الظروف المناسبة التي تحددها القيادات الواعية الخبيرة بالتاريخ والجغرافية والظروف المعاصرة والحالات القواعدية والاستثنائية. فالحرب خدعة، وكم من كلمة انتصرت على جيوش جرارة ، وكم من خدعة بسيطة مسحت إمبراطورياتٍ وقضت على وجودها .

(٢٢) نظرية الإفراغ والإحلال هي نظرية خصوصية وضعتُها لتفسير إطار تاريخي محدد يتعلق بمحاولة نقل الماضي إلى الحاضر ، لكي يصير الحاضر عبارة عن ماضِيَيْن معاً دون وجود للمعنى الآني المعاصر . وقد تُستَخدَم في إطار تفسيري بعيداً عن التاريخ ، إلا أنني

١) تحويل الإنسان العالمي إلى مجرد دجاجة تبيض ذهباً ، وهذا الأداء البؤري في يسلخ الفردَ من قيمته كإنسان يؤدي دوراً محورياً لخدمة كيان سياسي ينتمي إليه. وفي ظل هذا الغبش الفوضوي تزول قيم الانتماء للمجتمع الكَوْني ، لأن الرابط المادي صار عبئاً على المواطن ، والفرد بدأ يخلع وطنَه المادي المشوَّش ، لأن الأزمات الدولية صارت عبئاً على كاهل الإنسان . وهذا يفسر غياب الانتماء الحقيقي . فتتابع عمليات اختزال الفرد في إطار ما يدفعه ويقدمه للخزينة ما هو إلا إجراء صادم لطموحات الفرد الراكض في مدارات الانشقاق الظاهري والباطني ، فقيمة اللاانتماء أضحت المرادف الحقيقي للمواطنة في المجتمع العالمي الذي

أستخدمها في معرض تفسيري للحالة الإمبراطورية للحضارات المتعاقبة على كوكب الأرض التي ترمي إلى نقل القولبة الذهنية للحروب الغابرة إلى الواقعية المعاصر لمعاني التجرد والتجريد . التجرد من قيم الإنسانية والتوحد مع ذاكرة الهيمنة، والتجريد بمعنى تعرية الروح الإنسانية من معنى وجودها عن طريق صهرها في فكر مادي جدلي يتمحور حول عنصر المادة باعتماده عموداً فقرياً للحضارات الإمبراطورية الهلامية. فالإفراغ يعني انتزاع المعنى الماضَوِي من قالبه العضوي، وتفريغ الحاضنة الزمكانية= =(الزمانية_ المكانية) من الجسم الفكري الذي يُراد نقله إلى الحاضر عن طريق إحلاله في حاضنة جديدة مسيَّسة في إطار أدلجة استغلالية محدَّدة ، وموظَّفة لأهداف مغرِضة. لكن السؤال المحوري : ما الذي يدفع الكيانات إلى القيام بالإفراغ والإحلال في المسارات التاريخية؟. والجواب متشعب للغاية لكن المبدأ الرئيسي في الموضوع هو حاجة الكيان إلى تنفيذ مخطط إسقاطي لم يجد له الشرعية المنطقية الدقيقة في الحاضر ، فيلجأ إلى الماضي لعله يجد شرعية المتواليات الفلسفية التي تم تطبيقها على أرض الواقع ، وتُعرَف أسبابها ونتائجها بكل وضوح لأن الماضي كتاب مفتوح مكشوف بدءاً من الألف حتى الياء ، ويتضمن صورةً كاملة حول العِلَّة (المصدر) والمعلول (النتيجة) . وهذا لا يتوفر في الحاضر والمستقبل لأنهما كتابان مغلقان .

يأخذ ولا يعطي . وحينما تصبح السياسات الرسمية غير المحسوبة ، والمغامرات الصبيانية الطائشة ، عبئاً على كاهل الإنسان ، فالطبع سوف يؤول الانتماء إلى قيمة فردية عبثية ، خصوصاً في محيط اجتماعي مادي استقطابي يدور في حلقة مفرغة . وبغياب قيم الانتماء سوف تتصدع كيانات الدول ، لأن طموحات الفرد العالية لم يواكبها مشروع حضاري نهضوي حقيقي . وهذا مسمار حقيقي وعميق يُدَق في نعش
الحضارات المخالفة للمعنى الإنساني الكوني الشامل .

٢) إن نقل الماضَوِيَّة إلى الحاضر التطبيقي مع اختلاف الظروف البيئية الحاضنة للتفكير المنطقي المحيط بدلالات وحدة الملابَسَة السياسية يتطلب بنيةً ديناميةً في القوالب المعاصرة لكي تقدر على احتضان المعنى الماضوي السابق . والإشكالية في العقلية العسكرية الدولية هي زيادة الأعداء والمخاطر ، وتقليل الموالين ، لأن الدبابة لا يمكن أن تكسب قلوبَ الناس. وقد ورد في الحكم : ((بإمكانك أن تجبر الحصان على الذهاب إلى النبع ، ولكنك لا تقدر أن تجبره على الشرب)) . وكل خطايا السياسة ستنعكس سلباً على مصير الحضارات . وهذه هي فلسفة عسكرة الأنساق الفكرية ذات الأطر اللامنطقية في أفق ذاهب إلى عالَم متعدد الأقطاب . حيث إن حقبة القطب الأوحد الأمريكي تكرست بعد انهيار الاتحاد السوفييتي . وقد كانت هذه المدة هي الطور التاريخي لوجود القطب الأحادي المتفرِّد الذاهب إلى تعددية القطبية .

وعلى الرغم من متواليات الفلسفة العسكرية في المنظور الدبلوماسي إلا أن الأبنية المتآكلة في هاجس الحلم الإمبراطوري ما زالت ضمن صور الإطارات العبثية لسياسة غير عقلانية تولد من فوهات المدافع . وما الارتباط الصارم بين هواجس العدم الفراغي الجزئي والكلي إلا مأزق الانحسار الكوكبي ، أي ذهاب كوكب الأرض إلى الطريق المسدود .

- ٩ -

منطق القوة لا قوة المنطق

إني أذكر كلمة دقيقة قالها بنيامين نتنياهو : ((إن العالَم قد يتعاطف مع الضعيف بعض الوقت ، لكنه يحترم القوي كل الوقت)) .

وللأسف فهذه هي فلسفة المنطق العالمي في كثير من الدول المتنفذة ، مما يدل بشكل صاعق على تحول الأنساق الإنسانية المجتمعية إلى شريعة الغاب ، وانتقال الإنسان الكَوْني إلى أطوار التوحش الدينامي من أجل الإبادة والتدمير. لكن غطرسة القوة ممثلة بالأداء الكلاسيكي المتوحش للآلة العسكرية في أنحاء العالم نقلت المعنى الوجودي الإنساني إلى وديان المخيال الغريزي الصارم دون أدنى تطبيقات واقعية في البعد الحضاري العمومي .

فالواقعية العسكرية ما هي إلا تيار سلوكي اجتماعي لمصطلحات التكريس الفعلي للوهم ، أي إن بؤرية التصادم مع الوعي المرحلي إنما تظهر كنتيجة حتمية للغبش السياسي ، حينما يغيب صوتُ العقل ، ويظهر صوتُ البارود .

وفي إطار بحثنا الدؤوب عن اتساع رقعة الميثولوجيا العَقَدية العسكرية للحروب اللاأخلاقية ، ندرك أن انزياح خرافات الإمبراطوريات التي تتشكل من بؤر التجريد الاندفاعي للقتل والإبادة تحت شرعية الحقوق الإنسانية _ حيث يُصبَغ دم الضحايا بصابون الديمقراطية أمام الكاميرات_ ما هو إلا انزياح عابر لفلسفة الحروب التي تُشن باسم الله في كل الحضارات عبر الأطوار الزمنية المتعاقبة من أجل نيل الشرعية، لكن الله تعالى لا يأمر بسفك دماء الأبرياء ، وتدميرِ المنجزات الحضارية.

إن الإمبراطورياتُ القوية استمدت قوتها من السيطرة على أناس متفرِّقين لا رابط بينهم، يريد كلُّ واحد منهم أن ينجوَ بنفسه، والهروب دون النظر إلى الخلف. لكن القوي مهما بلغ مستوى تفوقه المادي لا يقدر لوحده أن يقاتل كل العالَم ،

فالأسد ملك الغابة استمد قوته من تفرق الحيوانات وتبعثرها ، وبحثها عن حلول فردية، وهذا ما جعل من الأسد سيداً مُهاباً. والطغاة سيطروا على شعوبهم لأن الأفراد متفرّقون ، يريد كلٌّ منهم أن ينجوَ بنفسه ، وليكن الطوفان من خلفه . وهذه هي منطقية " فَرِّقْ تَسُدْ " . وكل نظام سياسي متطرف ليس نظاماً حضارياً متماسكاً في تداخلات تكوينات البنى الفكرية . بل هو فوضى أنظمة تجميع الشظايا والمبعثَرات .

إن عملية تجذير الحروب الدينية بشكل فوضوي خطر على العالَم بأسره ، لأنها أدلجةُ محاور الشر كلها ، والنواةُ المركزية لكل تقاطعات الإرهاب العابر للقارات. والأمر يشبه وجود أناس على سفينة ، وقد مات أحدهم ، وصار جثةً هامدة ، وعبئاً على الأحياء الباقين ، وتهديداً حقيقياً لحياتهم . فإن تركوا الجثة على سفينتهم انتقلت الأمراض إليهم حتى يهلكوا واحداً تلو الآخر، ولا يملكون إلا خياراً واحداً، وهو رمي الجثة في البحر لكي يحفظوا حياتهم، ويبتعدوا عن نفس المصير. فالسفينة هي العالَم ، والجثةُ هي الحروب العبثية التي ينبغي التخلص منها خارج العالَم لكي يحتفظ العالَم بقدرته على الاستمرار .

وكلما ازدحمت النمذجة (وضع النماذج) الجزئية للسياسات المعرفية في زاوية ردود الأفعال ، نتجت إرهاصات مجتمعية تتخذ من انهيار المخيال الطموح للحلم البشري تياراً عَقَدياً يُغذِّي الجهودَ الرامية إلى إعادة تشكيل العالَم من منطق القوة لا قوة المنطق .

فالبعض يعتقد أن القوة العسكرية الجبارة قادرة على التمركز في البؤر الثقافية الحضارية ، ومن ثم إيجاد هوية جديدة للأرض تصير فيها البندقية هي أَنسنة الشرعية المنطقية للحلم البشري الثقافي الوجودي . وهذه الهوية الإقصائية من شأنها خلخلة الاستقرار في العالم .

لكن الإشكالية الحقيقية تكمن في رفض تصديق أن الفكرة لا تُجابَه إلا

بـالفكرة، وأن العقيـدة لا تُجابَـه إلا بالعقيـدة . فـانظر مـثلاً إلـى أفعـال الاتحـاد السـوفييتي سـابقاً الـذي نشـر الشـيوعية بالسـيف ، وزرع العقيـدة الشـيوعية بـالقوة العسـكرية ، فقـد اعتقـد أن السـلاح قـادر علـى زراعـة الفكـر والعقائـد والقناعـات الإيمانيـة الداخليـة، فمـاذا كانـت النتيجـة ؟ . بعـد أن زال الاتحـاد السـوفييتي عـاد المسلمون إلى المساجد ، وعاد الأرثوذكس إلى الكنائس ، كأن شيئاً لم يكن .

فالعقائـد الباطلـة لا تقـدر علـى إقنـاع النـاس بأفكارهـا ضـمن مقارعـة الْحُجَّـة بالحجة، لأنها لا تملك فكراً قوياً متماسكاً هادفاً ، لذلك تلجأ إلى الإفراط الكارثي في الإرهاب العسكري ، واستخدام أشد أنواع الأسلحة فتكاً لنشر عقائدها . وهذا ما أحدثته جرائمُ البلاشفة في روسيا ، ومحاكمُ التفتيش في أوروبا عامةً ، والأندلس خاصةً .

والنتيجـة المنطقيـة لدلالـة السـالبية فـي الممارسـة القمعيـة هـي تكـوين عناصـر اجتماعيـة مخياليـة لا وجـود لهـا علـى أرض الواقـع ، لأن انحسـار الفكـر المـادي التطبيقي للواقعية السياسية يقود إلى تشتت المتمركِزات النظرية في أنوية جديدة غير محسوبة بشكل دقيق .

***

- ١٠ -

ملامح الأطر السياسية للمعنى

إن البحث الدؤوب عن صيغة تحفيزية للتسريع في تكوين أنساق سياسية معرفية شاملة لا بد أن ينتهيَ إلى استئصال قيمة الخديعة في السياقات المجتمعية ، لأن الهوية الحضارية للمعنى الإنساني هي الامتداد المنطقي في جغرافيا الزمان والمكان ، وهذا الامتداد التكريسي لا يمكن أن ينسجم مع منظومة الخديعة .

لكن الأمر ليس سهلاً ، وفي ذات الوقت ليس صعباً ، لأن تفكك الإفرازات السياسية في تكوينات الأنساق الوجودية للسوسيولوجيا المجتمعية المضمحلة نابع من انهيار الأنوية الداخلية المكوِّنة لفقاعة الصابون التي تتقمص البعدَ الحضاري .

وبالقطع فإن تساقط المتواليات الهندسية لملامح الفكر المعرفي المسيَّس بشكل سالبي سيدفع باتجاه تكوين أنساق وجودية ذات صبغة متمردة على الطبيعة الفلسفية للضباب الأيديولوجي ، وذات قادرة على محو السالب وتفعيل الموجب .

فحينما يصل العطب إلى أجزاء مُولِّد الكهرباء لا بد أن تنطفئ الأضواء في ناطحة السحاب . وهذا هو الحاصل في متواليات البناء الدينامي المجتمعي العالمي باعتباره شكلاً للخرافة المؤطَّرة .

فالعطب الحضاري قد وصل إلى النواة المركزية (منبع النهر) في ثقافة الانكماش الحضاري ، وبالتالي فإن التداعي في انهيارات المعنى الوجودي لا بد أن يتدفق على شكل بؤر ثقيلة الظل ، تتصاعد عمودياً لتضرب العمودَ الفقري للإمبراطوريات المتحدة ظاهرياً والمفكَّكة باطنياً ، مما يدفع باتجاه التسريع في ولادة عالَم متعدد الأقطاب .

وفي إطار التجريد الفلسفي للمعنى العمومي نجد أن السياسات الغربية ممثلة في القداسة الوهمية للرجل الأبيض قد أَوقعت نفسها في الفخ الاقتصادي ،

وأَدخلت الحلم الإمبراطوري في مصيدة اللامعنى . وهذا سينعكس سلباً على القوة العسكرية (القوة الدافعة لقيمة الردع والتخويف) .

وإرهاصاتُ المأزق الشرس في تداخلات الحالة السياسية داخل السياق التكويني هي متواليات التسارع الإشكالي في طبيعة بناء الأنوية المجتمعية في الإطار المعرفي ، وتكويناتِ أنسجة الخلايا الفكرية العمومية المتشظية إلى القيم السُّلطوية وما يتفرع عنها .

وفي خضم التداعيات الأيديولوجية تبدأ مراحل اكتشاف أطوار التقنية السياسية المحصورة في صميم الرمزية السُّلطوية المتعاقبة . فالوجود الميكانيكي في الأداء الجيوسياسي الرامي إلى فرض وقائع جديدة على الأرض يفترض حتمياتٍ جديدة في التحليل العسكري المتواطئ مع عسكرة الفكرة تمهيداً لإلغاء العقلانية من قاموس المعرفة المنطقية .

فالتأسيس الكلاسيكي لعسكرة السياسية باعتبارها عاملاً فعالاً في الفوضى الخلاقة يكمن في أنساق المحيط الحاضن لوهم غطرسة القوة ، وفرض الحقائق على الأرض ، وإعادة رسم الخارطة الأرضية بما يضمن تكريس منطق الأمر الواقع .

لكن التكريس المنهجي لعسكرة القيمة الحضارة يؤدي إلى مقامرة بالمستقبل العالمي للفكر المجتمعي المتشظي. كما أن كلية التوظيف الاجتماعي للأسس التعبيرية عن مكياج الديمقراطية الشعاراتية تظل شكلاً أخرس لتفكك الوعي العناصري بين المترابِطات الثقافية الجدلية .

فالإمبراطوريات العائشة في فقاعة الصابون لا تملك أساساً أرضياً تقف عليه ، وتنفذ _ اعتماداً عليه _ مشاريعَ الهيمنة . وفي ذات الوقت لا تملك خلفيةً فلسفية أو مرجعيةً دينامية ثقافية حضارية لكي تبرِّر من خلالها مأزق البنى السياسة ، أو تحصل بواسطته على شرعية النظام السياسي العالمي الميت في كوكب يُحتضَر .

لكن التقنية الأدائية لتحليل قيمة الاجتماعيات في اتجاهات إنتاج فوضى النظم

المجتمعية المسيَّسة تظل نمطاً يفتقد إلى معنى الدينامية الحقيقي في أداءاتِ بؤرية التسييس الإمبراطوري .

فالدول التي تبني سيادةً واهمة في فقاعة الصابون لا تلبث أن تجد نفسها أمام معضلة الشرعية التطبيقية على الأرض ، فالبنى الاجتماعية للتسييس سرعان ما تبدأ في تفكيك متوازِيات الشعور الإنساني الذائب في إشكاليات القدرة النسقية على تحويل الفرد الإنساني إلى نواة في إمبراطورية إنسانية. لكن قيمة التوحش في دلالات البناء الإمبراطوري عبر أطوار التاريخ هي ذاتها التي تساهم في أدلجة الفرد في أُطر معادية لمسار وجوده الحر .

ووفق تكوينات البؤر المركزية لحاجة أنظمة الهيمنة الإمبراطورية إلى حاضنة عالمية ذات أبعاد تكريسية ، نجد أن الفوضى العسكرية المختبئة وراء قناع الدبلوماسية تحاول إثبات فاعليتها اعتماداً على التأسيس الفكري لحالة التوليد الذاتي المتعلقة بموت الروح . فالحضارات الإمبراطورية تتذبذب بين الهزائم العسكرية والانتكاسات الروحية . مما يؤدي إلى اضمحلالها . خصوصاً مع تصاعد الأطر المتداعية الخاصة بالتسارع المرحلي في توظيف الدلالات المحورية في بؤر النزاع الذي قد يؤدي إلى حروب أهلية جديدة في داخل الهوية الحضارية . فالخللُ الصارم في بنائية الإنسان التائه في المنظومة الكلية الضبابية هو النتاج الأيديولوجي لتفسخ الرابطة المنطقية ذات أبعاد الدلالة الإنسانية ، مما يجعل المساراتِ البشرية تنتهي إلى الوأد المنهجي للروح البشرية .

وكما أن انعكاس البؤر التكوينية في انضباط طفولة ثقافة المجزرة ، وشريعةِ الإبادة هو التماهي البرهاني لحالة المراهقة السياسية المبنية على جثث الضحايا . فالإشكالية التبعيضية في الممارَسة الحضارية المتطرفة _ كالنازية والفاشية _ تكمن في افتقاد الحضارة _ ككتلة جغرافية وتاريخية _ إلى الإحساس بالأنا المنطقية . ففي واقع الأمر هناك حضارات صابونية ليست بأكثر من وعاء تجميعي غير

متجانس تتخذ من عسكرة المعنى هويةً لا محيد عنها .

إن رمزية الجمعنة السياسية سرعان ما تنطفئ في تشابكات التأطير المتداخل في عسكرة القيم الإنسانية، لذا فإن الخطورة في مشاريع التطبيق الجزئي للعسكرة على أرضية التنافر الميكانيكي للمادة المعنوية هي محاولة تشكيل تقاطعات الهيمنة النسقية وفق قوالب جاهزة مسبقاً مضادة لهوية الخصوصية الإنسانية .

فمع تزايد انكسار الوعي السيادي المتداخل في جَمْعنة القوالب المعرفية الطائشة تتزايد _ تلقائياً _ فرص التأسيس العالمي لكوكب التعدد القطبي . فالخيار الوحيد أمام العالَم لكي يكون حراً بشكل حقيقي لا شعاراتي هو أن يبنيَ مستقبله في عالم متعدد الأقطاب .

لكن التوصيف الدقيق للتوظيف الفعال في تكوينات تجذير نظرية الفوضى الخلاقة التي قادت أمريكا إلى المأزق الحرج ، حيث الحصار بالأزمات الداخلية والخارجية ، هو التوصيف المنطقي للأنسنة الشعورية ذات المستويات المفتوحة على العدم . وفي ظل انعدام وجود أبجدية المعنى الدينامي تغدو سياسات اللامنطق منطقاً قائماً بحد ذاته .

إن التحولات العميقة التي ضربت العمودَ الفقري للحضارة الأمريكية ، تكمن أهميتها في وصول إرهاصاتها إلى الجذور لا الفروع . أي الاصطدام الشامل في العمق لا الضرب على السطح الظاهري، ومن هنا تنبع خطورة الموقف الأمريكي الحرج المحاصَر بالأزمات الداخلية والخارجية ، حيث البنية التحتية تتآكل ، والبنية الفوقية تتشرب التصدعاتِ بصورة كارثية .

وهذه التحولات العميقة الجذرية تشير إلى المشكلات الإمبراطورية بوصفها نواة متمركِزات مخلخَلة . لكن الانتقال من المستوى العسكري إلى المستوى السياسي دون بناء أنوية المصدرية المعنوية سيقود_ إن عاجلاً أو آجلاً_ إلى تضارب البناء الحضاري العمومي .

لكن المدلول الرمزي المكسور في إطارات البنى الدينامية التبادلية ينتقل بشكل ترابطي استحواذي على الداخل الأمريكي ، فكل مشكلات أمريكا في الخارج تملك أداءً ارتدادياً إلى الداخل ، حيث الانتكاسات الواحدة تلو الأخرى . فمثلاً ، منظر الجنود العائدين في النعوشِ الملفوفة بالعلم الأمريكي من شأنه صناعة أزمة اجتماعية حادة للغاية ، خصوصاً مع تفكك الأسر التي يعيلها الجنود ، وهم من أُسر متدنية المستوى من الناحية المالية .

***

- ١١ -

تأثير السياسات العسكرية على المجتمع الأمريكي

في ضوء تفريغ الحراك الاجتماعي من قيم الوعي السياسي تصير النماذج البشرية تحت رحمة الآلة الإعلامية الشرسة التي تقلب الليل نهاراً والعكس . فمبدأ التدجين ما برح يفترض تفكيراً إجمالياً سطحياً يستند إلى لغويات الشعور المكسور ، ويعيد إنتاجَ المتلقي على أساس تفريغه تماماً من الخلفية المعرفية الثابتة ، وإحلال التلقين الممنهَج في أمكنة الشعور المتذبذب .

ومع مرور الوقت يتحول الفرد إلى ببغاء تم تلقينه بعض الكلمات ليرددها دون وجود قدرات ذاتية على الولوج إلى عوالم التفاعل التخاطبي، أو وجود حصيلة استشرافية تتيح له فرصة الاطلاع على الآخر ، والحكم بنفسه إيجاباً أو سلباً .

فالفرد الغربي هو نتاج الانكماش المحوري المنهجي ضمن المجتمع الخاضع للإعلام الموجَّه تماماً كما يحصل في دولة الحزب الواحد ، فالغرب هو فلسفة الحزب الواحد رغم وجود التعددية السياسية الوهمي .

ولن يستطيع الغربيُّ فكَّ الحصار المفروض عليه من قبل أجهزة الإعلام المغرِضة إلا من خلال كسر رؤية عيون الآخرين ، واعتماد كل فرد على عينيه ليرى بهما ، لا أن يجلس ليرى بعيون الآخرين ، فيقول ما يُقال ، ويُردِّد ما يسمع دون التفكير العميق في الحالة المعرفية السائدة ، والاعتماد على التوازن في الطرح ، ومن ثم إصدار حكم منصف يعكس خبرة فعلية ذات تماس مباشر بالحدث .

أما أن تظل وسائل الإعلام الخاضعة لرأس المال المشبوه تتلاعب بعقول المشاهِدين، وتغسل أدمغتهم وفق أيديولوجيتها ، فهذا لن ينتج إلا فرداً فاقد الأهلية الثقافية .

وتتركز التعابير المخيالية في العزلة المفروضة على تكوينات التفسخ السياسي

الحاد، فالأداء السلوكي لإمبراطوريات الهيمنة هو الذاكرة الجزئية لافتراضات المعنى الدينامي المنهار بفعل تسييس دماء الضحايا لصالح طبقات متنفذة تنحو منحىً متآكلاً ومفضوحاً من الناحية الأخلاقية. لكن الإشكالية هي أن غطرسة القوة تتخذ من تكوينات محددة معنىً خاصاً لعلم أخلاق جديد يولد من فوهات المدافع لا القيم الإنسانية الفاضلة .

لكن إحلال المعنى العسكري في قلب الأنسنة الجزئية والكلية من شأنه إحالة انهيار الحضارات إلى شظايا المراهقة السياسية في إطار نظرية شمولية تقضم النظامَ الاجتماعي الأمريكي دون إعطائه فرصة للعودة من أجل بناء الذاكرة العالمية على أساس دبلوماسية العسكرة . وهذا سوف يدخل الأطرَ الحضارية في جدلية الفعل ورد الفعل (مبدأ الارتداد)[23].

إن مبدأ الارتداد واضح التراكيب في إشكالية التداخل التعبيري المتوازي مع حالة انكسار الحلم . فمثلاً، كل الحروب الشرسة التي خاضتها إمبراطوريات

---

(٢٣) هذا المبدأ مبني وفق الذات الكيانية والذات المقابِلة باعتبارها ذات تماس مباشر بالذات الكيانية بسبب وجود الفعل ورد الفعل ضمن نطاق ضيق مغلق محصور ، فالقاتل والضحية سيشعران بالمعاناة من جانبين مختلفين ، وهذا بالطبع لا يعفي القاتلَ من المسؤولية ، ولكننا نوضح هذه الرؤيةَ من خلال المثل العربي " كاد المريب أن يقول خذوني " ، أي إن حجم الضغط والشك وانعدام الثقة في ذاتية الإنسان ستكون وبالاً عليه تقوده إلى حتفه ، وكذلك المجرم . فدم الضحية سيظل لعنةً تطارده وهاجساً يملأ حياته بغض النظر عن ضميره . ومن يُقدِم على اغتصاب امرأة، سيظل شاعراً بالمعاناة الباطنية المنعكسة على ظاهره مهما كان سفاحاً أو متخندقاً في مظهر اللامبالاة وانعدام الشعور. فالضحية هي كابوس القاتل مهما كان محترفاً، ويبدو أنه ميت القلب.

الهيمنة انعكست سلباً على الأطر الداخلية ، وانقلب السحر على الساحر ، لأن العالَم
مكانٌ مغلق لأزمنة تموت .

أي إن ما يحدث للضحية من معاناة بسبب المجرم ، سينعكس على المجرم لا محالة في التو واللحظة، وعلى المدى البعيد ، ليس لأن ضمير المجرم قد استيقظ، بل لأن العالَم مغلق ومحصور تماماً كملعب الإسكواش، فأي كرة تضربها باتجاه الجدار سوف ترتد إليك ، أو على الأقل ترتد في نفس الجهة التي تتواجد فيها .

فكل الحرائقِ في العالَم يبدو أن دخانها قد صعد إلى الفضاء وتبدَّد، لكن المفاجأة غير السارة هي أن الدخان يعود مرة أخرى إلى الأرض ليؤثر على الحياة سلباً، لأن كوكب الأرض محاط بغلاف مثل الشرنقة لا يسمح بالنفاذ ، وهذا ما يجعل كوكب الأرض زنزانة كبيرة ، تظهر على أنها أفق رحب مفتوح ، لكنه عكس ذلك تماماً . لذلك فكل السموم التي تنفثها مصانع الدول الكبرى تعود إلى الأرض على شكل أزماتٍ بيئية شديدة تهدِّد مصيرَ هذا الكوكب الضائع .

وعلى الرغم من كل ما يحصل في النظام البشري الاجتماعي والتضاد الحاد في إشكالية القاتل والضحية المنتشرة على الأرض إلا أن العالَم أجمع في سفينة واحدة ، والكارثة الحقيقية المحدقة بالجميع هي أن هناك فئاتٍ تحترف الإفساد، وتعمل جاهدةً على إحداث ثقوب في السفينة مما يعرض حياة الجميع للخطر بلا استثناء .

وهذا المثال الواقعي يُوضِّح المصيرَ المشترك العمومي للحياة على هذا الكوكب. وقد وجدنا أن ظاهرة الاحتباس الحراري مثلاً أو ارتفاع حرارة الأرض أو مشاكل الأوزون ، كلها تهدِّد الحياةَ البشرية بغض النظر عن التوجهات البشرية الدينية والسياسية .

ومن جهة أخرى فإن الأسلحة النووية التي تفتخر بها الدول كرمز للقوة

والسيادة والمكانة الدولية هي نقطة قوة وضعف في آن معاً ، وقد تُشكِّل تهديداً حقيقياً على الدول النووية ذاتها ، لأن المفاعل النووي إذا ضُرِب أو حدث له خلل فإن الدولة التي تسيطر عليه ستفقد السيطرة عليه ، ويصبح لعنةً تقضي على مصير أبنائها ومستقبل وجودها البيئي وكيانها السياسي الاجتماعي. وأظن أن العالَم لم ينس ما حصل في تشيرنوبل إبان حكم الاتحاد السوفييتي .

ومن جهة أخرى نجد أن أمريكا تنفق مبالغ هستيرية على أبحاث الفضاء وغزو العالَم الخارجي والوصول إلى القمر ومن ثم المريخ ، في حين أنها لا تفكر في حل مشاكل الإيدز والجوع والفقر والبطالة والموت الإنساني البطيء . فلو تم إنفاق هذه الأموال على إصلاح كوكب الأرض وتنميته وإنقاذ البشر لصار كوكبُ الأرض جنةً خالية من المشكلات .

فالتداعيات الأيديولوجية ذات الأطر السياسية والاقتصادية تنسحب بشكل كارثي على الصيغ الفلسفية للفرد الأمريكي الذي يترنح تحت وطأة مجتمع رأسمالي قدَّم بعضَ المنافع المادية لفترة زمنية معيَّنة ، ثم حصلت الانتكاسة الشرسة التي من شأنها تعرية المنظور الاجتماعي تماماً ، وإدخال المجتمع في حالة من عدم التوازن أو الاضطراب الاجتماعي الحاد بسبب طبيعة الأدلجة في المستويات الاجتماعية الملتصقة بالأداء السياسي المرتبك.

ومع تنامي حدة الرمزية المعنوية في تشكيلات الكيانات الإنسانية تُحال وجودية العقلانية الذاتية إلى إطاراتٍ من هوس الاستهلاك التجريدي ، فتغدو الحضارة المتصوَّرة شكلاً من أشكال الترف الزائد عن حاجة الأنسنة المستهلَكة .

وفي ظل هذا الزحام التكويني لثقافة الفراغ وإحلال الذاكرة الشخصانية الآنية في محل الكل الجمعي سوف يتخلص الفردُ الأمريكي من ثقل الهاجس الحضاري الواهم في سبيل الحفاظ على قدرته الاستهلاكية ، وهذا الذي يجعل القيمة الأسطورية للحضارة المادية _ بوصفها عبئاً ثقيلاً على كاهل القدرة الاستهلاكية

للشعب المخيالي _ مجرد مرحلة استهلاكية عابرة انتهجها الفردُ لتحقيق مكاسب مادية نفعية شخصية ، وحينما عجزتْ عن فعل ذلك تخلَّص منها لكي ينجوَ بنفسه محافظاً على التنميط الشخصاني في الإطار النفعي الذاتي . أي إن الفرد المادي الذي يرى انهيار مجتمعه أمام عينيه ، سوف يخلعه ليخف عنه الحِمْل أثناء غرقه ظناً منه أن ذلك طريقه إلى النجاة . فالغريق لن يفكر في إنقاذ باقي الغرقى ، وإنما سيركِّز كل جهوده لإنقاذ نفسه ، وليكن من بعده الطوفان . وهذا يعكس زيف البناء الأسطوري للإمبراطوريات المتعاقبة عبر تكثيف الإرهاصات التاريخية . إذ إن صورة الوهم المتطابق تأخذ أشكالاً مختلفة بحسب الضغط الاجتماعي والتدخلات السياسية من أصحاب النفوذ ، وهكذا نجد أن تحولات الوهم إلى علم اجتماع سياسي ذي تطبيقات تمس حياة الأفراد والجماعات سوف تَقتل بقايا المستقبل . وفي كل المآزق الحضارية الوجودية تبزغ فلسفة ثابتة في متطابِقات اضطراب العلاقة بين الأنا والآخر الداخلي فضلاً عن الآخر الخارجي.فالمجتمع المادي الإشكالي هو هلامية التعبير المجتمعي لا حقيقة البناء الجذري الفعال . ومن هنا فإن التكوينات السياسية تفرز بيئةً أنانية تتمحور حول مركزية الفرد باعتباره المحور والركيزة في العمل الاجتماعي وهذا يتشابه مع الفلسفة الوجودية التي تجعل العناصرَ تدور حول الإنسان"المرْكَز"،حيث يصبح كلُّ ما حول الفرد المركزي المغرور أطرافاً.

***

- ١٣ -

انكسار أجزاء الحلم التوسعي

إن وضع المنطق المستحيل في تقاطعات تجذير السياسة الأمريكية الداخلية ، والاعتماد عليها للانطلاق إلى السياسة الخارجية من شأنه تفتيت الدلالات الحضارية المتصوَّرة ذات الملامح الإمبراطورية الشخصانية . فكل المجتمعات التي يكون فيها الانتماءُ مجرد منفعة مادية بحتة تبدو متماسكةً ما دام الاقتصاد قوياً ، أما إن حصلت أزمات عنيفة فيبدأ العقد الاجتماعي المخلخَل أصلاً بالانحلال بشكل دراماتيكي ، حيث يبحث كل فرد عن مصلحته الذاتية، ويغيب الانتماء للكل الوطني لأن الوطن صار شركةً مفلسة . وهذه هي أدبيات النظام السياسي في كل الحضارات الإمبراطورية مثل فقاعة الصابون .

إن القيم التحريرية أو التي يُفترَض بها حمل دلالات الحرية صارت تياراً استهلاكياً مثل الوجبات السريعة . فالدمار المنسحب على إشكالية التبعيض الحياتي للأفراد يتكرس في أطر بعيدة عن الحلم الكوني العالمي بحياة أفضل ، ويتجذر حول انكسار بؤرة المعنى في أداءات شهوانية وقتية من شأنها تكريس الفرد كنمط استهلاكي في موضع البيع والشراء [24] .

---

(٢٤) إن أخطر ما يهدد الفلسفة المنطقية للتأسيس العقلاني لسياسة الكيانات البشرية والدولية هو تحول القيم الإنسانية إلى قيم استهلاكية ، أو بالأحرى إحالة قيم التحضر البشري إلى بؤرية البضائع التجارية، فيصبح الإنسان مجرد سلعة تباع لمن يدفع أكثر . وإذا استمر الوضع وفق هذا الشكل فإن النسق البشري سيغدو إجراءً ميكانيكياً آلياً قاتلاً لا وجود للعاطفة فيه، مما يؤدي إلى تدمير كوكب الأرض نتيجة تحوله إلى غابة يأكل القويُّ الضعيفَ دون أية شريعة دينية ملزِمة ، أو تيار أخلاقي إنساني حاكم.

وهذه الجدلية الاستهلاكية نقلت طبقاتِ المدلول المسيطر على انبعاثات فلسفة عسكرة الخيال السياسي من محيطات الفعل إلى مصيدة ردة الفعل . وكلما تواصلت النزعة الاستهلاكية في التهام القيم الحضارية العمومية اتَّجهت وحدة الأحداث العالمية إلى فرض الإقامة الجبرية على الأنساق السياسية ، أي تحول الإمبراطوريات السالبية المتمددة ظاهرياً إلى ظل باهت لمشروع توسُّعي لم ينجح بفعل الخلل الاجتماعي الداخلي .

وكما هو معلوم فإن أية حضارة كبرى لا يمكن أن تصل إلى ما وصلت إليه من مجد مؤقَّت إلا إذا حصَّنت الجبهةَ الداخلية ، وهذا ما لم تنتبه إليه أمريكا في زحمة أحلامها الإمبراطورية التوسعية، فسقطت في مصيدة الداخل والخارج معاً. فإذا انهار جهاز المناعة الداخلي ، فإن التقدم الاجتياحي سينكسر ، وهذا يؤدي إلى مآزق وجودية حرجة .

وفي ضوء هذا الاندفاع الخارجي ظهرت الأزمات الخانقة في الداخل، مما يدل على دخول أمريكا في عزلة انطوائية لتصحيح مسارها الداخلي، وهذا صعب للغاية يقترب من المستحيل، لأن الإبريق المكسور لا يمكن إعادته كما كان مطلقاً. صحيحٌ أنه يمكن لصقه وترميمه ، ولكن لن يعود كما كان مهما كان الحرفي ماهراً .

ونحن في إطار تشريحنا لأبجديات التبادل الميكانيكي بين عسكرة السياسة وتسييس العسكرية نتوصل إلى حالات دقيقة من البنى السوسيولوجية في تعميق فهمنا لأداء التجربة الإمبراطورية المرتبكة .

وكل الإرهاصات السياسية تنسحب على جزيئات المجتمع التداخلي الشَّعبَوِي ، فانكسار البنية الفوقية لم يأت عبثاً أو بمحض الصدفة ، بل هو نتاج طبيعي دينامي لحالة التخبط في التسييس المبالغ فيه لعسكرة العالَم سالبياً من منظور فَوْقي . وكلما فكَّكت المنهجيةُ التاريخية الصيغَ اللاأخلاقية ، بدأت المضامين الذاتية الشعبية في نسف حلم المواطن الأمريكي العادي العاطل عن الوطن، بعد أن

صار التشكيل الوطني صفقةً خاسرة ، وسهماً هابطاً في البورصة . فلم تكن الوحدة الوطنية أو تعريفات هلامية الأمة الأمريكية إلا نسقاً شعاراتياً في مجتمع يتَّجه نحو المزيد من الصدامات الداخلية والتفكك وعودةِ النزاعات العقائدية والعِرْقية بكل تشكيلاتها الروحية والمادية .

ووفق فلسفة انعدام التواصل بين الأنا العسكرية والجسدِ الاجتماعي الميكانيكي تبرز آلياتٌ متماهية مع تشييد أطوار العزلة القاسية المفروضة على إفرازات البنى الجيوسياسية . فقوة المؤسسات الإمبراطورية في تكثيفها التاريخي نابعة بالأساس من القدرةِ على التمدد خارج الحدود الذاتية ، والتكريسِ الأدائي للعبور خارج النطاق الجغرافي الضيق ، وتأسيسِ سياسة عسكرية ضاغطة عابرة للقارات .

ومع تفاقم الأزمات الخانقة التي تحيط بأمريكا من كل الجهات سيبدأ التمدد السياسي المعسكَر بالانكماش والتقوقع على الذات نتيجة انكماش المستويات الداخلية في شتى مجالات . ومن خلال أنظمة العزلة الداخلية والخارجية ستجد أمريكا نفسها في وضع لا تُحسَد عليه[25] .

---

(٢٥) إن أمريكا كيان يتمتع بحصانة طبيعية ، فهي شبه جزيرة بين محيطين ، وهذه الحماية الطبيعية جعلت منه كياناً نائياً عن الحروب في داخل أرجائه سوى أحداث ٩/١١ والحرب الأهلية بين الشمال والجنوب . وبما أن الأنساق الإمبراطورية خاضعة لقانون تداول الحضارات، فلا مفر من تفشي المشكلات في الداخل الأمريكي. فقد رأينا أن الأزمة الاقتصادية الخانقة التي تصاعدت وتيرتها بشكل كارثي مع مطلع عام ٢٠٠٩م تؤسس لعالَم متعدد الأقطاب ، وتدفع باتجاه نزاعات اجتماعية شرسة للغاية . مما يشير إلى أن العزلة الأمريكية ستتفجر باتجاهات سالبية .

ومن خلال توليد الزخم الهلامي للتغطية على غياب العقلانية المحيطة بالذاكرة التَّسييسية ، تتجذر مستويات انكسار الوعي الأمريكي كحالة ميكانيكية شَعْبَوِيَّة تهدف إلى رسم سياسات بناء الذات البشرية حسب قيم استهلاكية خاضعة للتشظي الإفرازي لطبقة العلاقات الترابطية بين السُّلطة والثروة .

وكل هذه الانكسارات في مركزية العمود الفقري للمجتمع تؤول إلى إنتاجات ربحية على حساب المواطن العادي . وبعبارة أخرى إن تموضع الجهل في المجتمع الأمريكي المتصوَّر ليس تياراً اجتماعياً عابراً بالصدفة ، بل هو نتاج أدلجة نخبوية رامية إلى حصر الفرد ضمن دائرة المتلقِّي الذي يتم تلقينه بالمعلومات . وكل هذا التأطير الموجَّه ضد الوعي الاستقلالي يُدخِل الشعبَ المخيالي في زاوية رد الفعل لا الفعل .

ولا بد من انقلاب الفرد على ذاته إذا أراد الالتقاء بذاته . أما حالة الضياع الشاملة التي يحياها الفرد في ظل منظومة اجتماعية مكبوتة وفوضوية تأخذ شكل النظام ، فسوف تزداد تعقيداً وسلبيةً . الأمر الذي ينتزع الفرد من مجاله الحيوي كفرد قادر على البناء ، ويجعل منه معول هدم في سياقات مجتمعية تقيم مجتمعَ الوهم على أنقاض المجتمع الحر والحي.

***

فهرس

مقدمة.....٥

١_ معالم السياسة الأمريكية المتشعبة.....١١

٢_ تفريعات القوة الروحية والمادية ١٧

٣_ أدلجة عسكرة السياسة.....٢٢

٤_ إشكالية اقتصاد السياسة وسياسة الاقتصاد.....٢٩

٥_ فلسفة التقاطعات في تآكل الأسطورة الحضارية.....٣٥

٦_ نتائج الفعل الإمبراطوري الركيك.....٤١

٧_ بذور نهاية الحلم في أنويته الداخلية.....٤٦

٨_ أزمة الوعي في زحمة عسكرة المعنى.....٥٩

٩_ منطق القوة لا قوة المنطق.....٦٧

١٠_ ملامح الأطر السياسية للمعنى.....٧٠

١١_ تأثير السياسات العسكرية على المجتمع الأمريكي.....٧٥

١٢_ انكسار أجزاء الحلم التوسعي.....٨٠

فهرس.....٨٤